الحبيب الجنحاني

المقري

صاحب نفح الطيب

دراسة تحليلية

ملتزم الطبع والنشر
دار الكتب الشرقية
تونس



الطبعة الأولى

١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م

طبـع بمطبعة « النهضة »

الإهداء

إلى الذين يقدرون ما يبذله الباحث من نفسه في سبيل إظهار الحقيقة الصراح .

وينظرون لثمرة جهده نظرة صادقة . ويؤمنون بأن العملَ الواعي خيرٌ من الإخلاد إلى الدّعة ولو كان في العمل هَنات ، ويشعرون بأن الثقافة الإسلاميّة في مَسيس الحاجة إلى باحثين مخلصين في أبحاثهم ، أهدي هذا العمل المتواضع .

كلمة شكر وتقدير

إذا كان للمؤلف في الثمرة التي يُنتجها فضلُ الخلق والإبداع، فإن هذه الثمرة لا يُستطاع جنيها وتذوّقها، إذا لم تعمل دور النشر على إبرازها في أجمل مظهر، وتيسّر اقتناءها.

ومن هنا كان للناشرين عمل فعّال في نشر الثقافة وتوفيرها. فهذا المولود الجديد لولا دار الكتب الشرقية لما قُدّر له أن يبصر النور بهذه السرعة والنضارة، ولما استطاع الناس أن يتأملوا فيه، ويبقى المؤلف ضجراً بحمله، ويبقى الناس في حاجة لما يحمل. ولكن شاء الله أن تريح دار الكتب الشرقية المؤلف، وتُمْتع القراء الكرام، فنشرت الدراسة. فلصاحبها السيد محمد خوجة الشكر والتقدير، ونتمنى لدار الكتب مزيد التقدم والازدهار.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

إن دراسة التاريخ قد مسّتها أضواء العلم مسا رفيقا ، وخضعت لتطور الزمن الذي ولّد مفاهيم جديدة للتاريخ ، وطرقا علميّة في البحث عن مد حياة الشعوب وجزرها .

وإذن ، فالتاريخ لم يبق سرد حوادث ، ووصف قصور ، وتعداد جوار ، وخِصْيان فحسب إلاّ عند من لا يريد أن يتجاوز « المروج » ويلذ له الوقوف عند « العبر » وإنما هو ـ حسب الفهم الحديث ـ جَلاء نفسية الشعوب ، والكشف عن ألوان حياتها المختلفة ، حياتها الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، والنفسيّة والثقافية .

وإذ بَلغ فهم الانسان للمنهج التاريخي هذا المدى المتحفّز ، فإن نظرته لتوأم التاريخ « فن التراجم » اعتراها تغيّر ، وأفقدها الاستقرارَ تبدّلٌ هادف ، فلم يعد يقنع بأن تسرد له حياة المترجم له ، وتصب الألفاظ في وصفه صباً ، تفقد معه قيمتها ، فإذا هي هراء ، وإذا أنت تهذي ، وإذا شخصية المترجم له هي هي لا وضوح بعد غموض ، ولا رِيّ بعد صدًى .

وقدماً كان هذا ـ ولا سيما زمن تحجر العقول ، وتقديس الماضي لذاته ـ إذا استثنينا أبا الفرج الذي يأبى إلاّ أن يجلو ـ في توفيق ـ نفسية الذي يتحدث عنه .

أجل . لم يعد يقنع المثقف في عصرنا بسرد الحياة المعتادة ، وإنما يريد منك أن تستعين بهذه الحياة على فهم نفسية المترجم له ، وتحليل شخصيته التي لا نستريب في أنها تصور من قريب بيئتها وعصرها .

ومن هنا سما نجم التوفيق في الكتابة عن الشخصيات ، حتى عن يد العملاق المتطاول، فكيف بالقزم الأعرج ؟

واعلم قارئ ـ هذه الصفحات ـ قبل أن ترافقني في هذه الدراسة ، أنني لست مؤرخا ، وإن كان يلذ لي السمر مع التاريخ ، ولست من كتاب التراجم ، وإن كانت حبيبة إلى النفس؛ لأن بها تسلى عن كثير مما يلم ، وبها تستبين . . . وإنما ربطتني مع صاحب النفح روابط قديمة ، زاد في متانتها رابط جديد ، وإيماني بأن « فن التراجم ، فن رفيع ، كبير الخطر ، جليل الشأن . ولعل ترجمة علم من الأعلام يجلوها الصدق ، والفن ، والبراعة ، أفعل في النفوس من رؤية تمثال لذلك العلم مهما كان للتماثيل من أثر حبيب فعّال . فالمعنى البعيد الغور ، السحيق القرار الذي تعجز أجلاد الصلب والشّبَه (١) والرخام عن أن تهز به النفوس ، تقوى عليه الحروف السود ، ومن ورائها العلم والفن ، ومن وراء كل ذلك

(١) النحاس الاصفر

روح تخاطب روحا ، وتحملها على أن تختلج بالآيات البينات من البطولة والخلود (١) »

اجتمع كل ذلك ، فإذا أنا أتجه إلى دراسة المَقَّري ، وتتبع أخباره دون غاية واضحة بداءة . ولما اتسع نطاق الدراسة راودتني فكرة نشرها ؛ لأن في ذلك نفعاً وإعانة ، وطال التردد . والبحث في اتصال . وشاء حظ القارئ الكريم أن يشجعني على الطبع رجل خيّر ، تربطه بالمؤلف صلة ودّ وتوجيه ، فإذا بالدراسة تبرز في شهرين ، وتلقى بين يديك أيها القارئ ؛ لتحظى بكل الرضا ، أو لتنال قليلا منه .

سواء ذلك عند كاتبها ما دام أشركك في الأثر ، ورضي أن تَرِدَ ، فلا يستطيع أن يفرض عليك بعد ، أن تقول : هذا عذب فرات ، وإنما يرغب منك أن تضن بالسرعة في قراءتها ، وفي الحكم لها ، أو عليها ، لا لأن معناها معقد ، ولفظها مهجور ، ولا لأن المترجم له فيلسوف أرهقته حدودُ العقل المحض ، وإنما ليكون الحكم أقرب إلى الصواب .

وأنا أشعر أن شخصية المقري تحتاج إلى دراسة أوسع من هذه بكثير . وقد رغب مني حقا عالم فاضل سليم « النفسيّة » أن أتريّث ، لأستطيع الاستيعاب — سيما والرجل لم يبحث قبل بحثا متأنيا — فهنالك مخطوطات متفرقة في مكتبات عامة وخاصة ، يقتضي العمل العلمي الاطلاع عليها ،

(١) من مقال لعادل الغضبان بمجلة الكتاب عدد افريل س ١٩٤٩

وتوجد دراسات قام بها بعض المغاربة ، قد تعين معرفتها على الدقة والشمول ، وقد سعيت للتمكن من ذلك ، ولكنني لم أظفر بالبغية ، ولعلي لا أظفر بها بيسر ، أو بشيء من عسر ؛ لأشياء في نفوس بعض أصحاب المكتبات ، يدركها من ولّهته الكتب النادرة .

فلهذا ، وللحاجة الملحة إلى مثل هذه الدراسة التي تمشي بين الناس على استحياء رأيت نشرها على صورتها هذه ، وأملي أن أوسعها ، إن قُدّر لي أن أعود إلى الرجل مرة أخرى .

وإذا لم تظفر هذه الدراسة بإعطاء صورة جلية مقنعة عن شخصية المقري ، فقد عبّدت السبيل . وحسب المعبد أن يكون رائداً ، ومزيلا ؛ لما يرهق الأقدام .

الحبيب الجنحاني . تونس ١١ ـ ١٢ ـ ١٩٥٤

توطئة

الحركة الفكرية في المشرق :

مآسي الثقافة الإسلامية أعظم من أن تبقي بذرة فيها حياة ، محقّقة نماء ، يعقبه إثمارٌ ، لو لا أسباب مألوفة في حياة الإنسانية ، وحكمة أرْسَى عليها هذا الكون .

فهي قد مرّت عليها عواصف هُوج من يوم أن كانت كلا ما محكما يتلى ، وإعمالَ فكر متى لزّت مشكلة حياة ، حياةِ دولة تتسع ، وحياة جِلْف يحدو على قتَب بعير ، ولم تزل تمتد وتتسع ، ويدخلها شيء غير هيّن من الترف ، ويغزوها كثير من العمق ؛ فتضيف بذلك لبنات في الحضارة الإنسانية ، وتكسِب الخلود ؛ لم تزل في هذه النضارة والحيويّة في غفلة من عين السياسة حينا ؛ وفي رعايتها أحايين ، حتى هبّت ريح الصفر ، فتركت مدينة العلم ، وسوق الأدب — بغداد — خلواً من العلم والأدب ، وأهلهما ، وهكذا غار المعين ، وقوّض إنسان ما شيّد إنسان ! !

وما أكثر المعاصرين من المؤرخين الذين ينقطع حبلهم هنا ، فيبقى القارئ متطلعا ؛ وقليل أولئك الذين كتبوا عن مرحلة الثقافة الإسلامية بعد نضوب المعين ، وقصد وادي النيل ، حتى استقبال الضيف الثقيل — الأتراك — أما ما فعله هذا الضيف ، وكيف كانت الحركة الفكرية

ـ بالخصوص ـ في أيامه ، فذلك علمه عند دراسات مختصرة ، إن صوّرت شيئا عن الحالة السياسية ، فإنها لا تُبين عن الحالة الفكرية والأدبية ، والتاريخ أثبت أن تلك لا تمثّل هذه ؛ لأن الحركة الفكرية ، قد تتجه اتجاهاً معاكساً للحالة السياسية . وسل كتب التاريخ عن القرن الرابع الهجري فستجد الدليل .

وأنا كدارس لشخصية عاشت في القرن الحادي عشر الهجري أرى لزاما علي ذكر ميزات هذا العصر الثقافية ، والإلماع لما تقدّمه ، لما في ذلك الربط من إعانة على تصوّر الظلمة بعد أن التمع قبس ، مدّ في أمل نفوس أظلمها الخطب ، وأفقدها الوعيَ ما فعله التتار .

كانت بغداد رغم سوء الإدارة ، والنزاع المذهبي قبلةَ العلماء ، وسوق نَفاق الأدب في النصف الأول من القرن السابع الهجري ، فإذا كان قصر الخليفة غارقا في الترف والفجور ، وتربةً خصبة للمكائد والدسائس التي تقوم بها في الغالب إمرأةٌ ، تملك قلب الخليفة ، فتملك أزمّة الدولة . وماذا ينقصها أليست اللحاظ تفعل ما تعجز عنه السيوف في زوايا كهذه تفوح (١) فجوراً ودساً ضحيته الشعوب ؟

وإذا كانت السنة ، وحب آل البيت يُتخذان ستاراً للوصول إلى الحكم ، فإن مكتبات بغداد ، وأنديةَ العلم والأدب زاخرةٌ بطلاب المعرفة الذين بينهم وبين السياسة شغلُ البحث ولذّة الاطلاع ، ولا سيما إذا كانت

(١) بالمعنى المرجوح . تاج العروس ـ ج ٢ ـ ص ٢٠١

السياسة تسوقها أهواء عمياء . إعمال السيف في الرقاب أيسر عندها من استمالة قلب جارية حسناء .

وذلك الذي كان في دار السلام أواخر النصف الأول من القرن السابع الهجري . حشدٌ من البشر تحسبهم جميعاً ، وقلوبهم شتى ، وخليفة مترف لا يعلم من أمر الدولة والشعب إلا هذه الوجوه الصِّباح ، والأوامر المرتجلة ، وكثيراً ما يمدّه بها السمع ، ووزير يريد خلافة العلويين ، فيتعاون مع متوحشين .

من سينقض هذا الخليط من نتائج ما تنطوي عليه النفوس يا ترى ؟

ولكن بلغ السيل الزبى ، فكانت ضربة التتار سنة ٦٥٦ ﻫ التي أزالت ومحت ، فحققت النتائج بعد أن استحال الإنقاض .

وهكذا انهارت حضارة ؛ وذهبت ثمرة أجيال ؛ واستولى على النفوس القنوط ؛ وأجدبت الحياة .

وقصد المغول بلاد الشام ، وأرض مصر ؛ ليستولي عليها ، ولكنه رجع منهزما هذه المرة ؛ لأنه لم يجد ذلك الحشد ، والخليفة ، والوزير .

وتدبّ حركةٌ في الشام ومصر ، وتقوى ، وإذا بالشام علم وعلماء ، وأدب وأدباء « ولكن إذا ضاع الحظ ، فالكوارث تخلفه آخذاً بعضها برقاب بعض » فالشام التي استعصت على هولاكو لم تستعص على تيمورلنك الذي مثل دور أجداده بالشام ، فخرب ودمر ، وقتل أهل الرأي والمعرفة . ونجت مصر من تخريب تيمورلنك ، فقويت الحركة العلمية فيها ،

وعم النشاط في ظل حكم المماليك الذين لم يكن لهم أدب يتعصبون له، ولغة يريدون فرضها؛ وإنما وجدوا أنفسهم في مجتمع إسلامي ذي عادات؛ وفي قصور ذات تقاليد فاتّبعوا، وأدركوا أيضا أنهم إذا أرادوا دوام الحكم، واستقرار الأمر بأيديهم، فلا بدّ لهم من أن يتحببوا إلى الشعب بمظاهر يودّها، فبنوا المدارس والمساجد، وساروا في هذا الجانب من الحياة سيرة الأيوبيين من الذود عن عقيدة أهل السنة، ورعاية المتصوفين، وتوفير العيش لهم.

وحيي العلم والأدب في تلك المدارس والمساجد، ونشط العلماء في التأليف والإنتاج، وسجلت ظاهرة تأليف الموسوعات. وكان تشجيع المماليك للعلماء، وإعانتهم على العيش عاملاً من عوامل الاندفاع في التأليف الذي استحالت به مصر مركزاً عظيما للثقافة الإسلامية إذاك، وسوقا رائجا للكتب، وهو وإن لم يكن قويا فقد زاد في النشاط (١) ومن يدري لعل العلماء أرادوا بكثرة التأليف تعويض ما خسرته الثقافة الإسلامية في بغداد، ولكن ما نصيب هذه الثقافة التي كانت لها القاهرة مركزَ نشاط من التجديد والإبداع ؟

لا نظلم الحقيقة إذا قلنا: إنها اجترار للماضي، وجمع له، وشرح، واختصار. أما الابتكار، فإنك لا ترى له أثراً إلاّ في القليل النادر، إن لم يكن معدوماً. فالشرق في هذه الفترة، فترةِ المماليك وما بعدها يعيش

(١) راجع الكتب التي ظهرت بفضل تشجيع بعض سلاطين المماليك في كتاب «عصر سلاطين المماليك» ج ٣ – ص ٨١

في عزلة تامة عن الغرب الذي بدأ يؤسس نهضته ، ويبني حضارته التي نعيش في ظلالها اليوم ، ولما التقى به على يد بونابرت ، وجد بينه وبين الخطوات التي قطعها الغرب هوّةً سحيقة جعلت منه تابعا إلى الآن .

أما النشاط الأدبي ، فقد كان ضعيفا بالنسبة للنشاط العلمي الديني ، فإذا كان علماء الدين إذاك مكنهم من الحظوة ، ورعاية القصور ، إيمانُ المماليك القوي بالإسلام ، واحترامُ شعور الشعب الديني ، وتنفيذُ العلماء لرغائبهم ، فإن الأدباء بينهم ، وبين القصور عجمةُ أهلها ، وغلظة طباعهم . وأما طبقة الشعب ، فقد شغلتها متاعب العيش ، وألهتها أمور الآخرة شأن عصور التأخر التي يجد أهلها في التبتل تعويضا عن شعورهم بالتقصير في تحمل المسؤولية إزاء الحياة ومشكلاتها .

وأثّرت حالة الشعب هذه ، وموقف السلاطين على الحركة الأدبية ، والبيان العربي ، واستمع لرجل تنفس في ذلك الجوّ الخانق يقول « وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة ، والأخذ منها بالحظ الأوفى ؛ لاستيلاء الأعاجم على الأمر ، وتوسيده لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك (١) لعدم إلمامه بالعربية ، والمعرفة بمقاصدها ، حتى صار الفصيح لديهم أعجم ، والبليغ في مخاطبتهم أبكم » القلقشندي .

وكأن خشونة طباع المماليك ، وبلادة الكاذبين من المتصوفين ، وزمانة أصحاب « المختصرات والحواشي » أثرت جميعا على الأدب . فجاء

(١) الانوك : العيي في كلامه . والجمع نوكى ونوك .

هو أيضا سخيفا سمجا ، غارقا في التقليد الفاضح ، حتى قال صريحهم إن قصد :

وأَسرق ما استطعتُ من المعاني * فإن فقتُ القديمَ حمدتُ سيري
وإن ساويت من قبلي فحسبي * مساواة القديم وذا لخيري
وإن كان القديم أَتم معنىً * فذلك مبلغي ومطار طيري
فإن الدرهم المضروب باسمي * أَحب إليّ من دينار غيري (١)

والذي زاد الأمر ضغثا على إبّالة ، هو أَن الفن أصيب بفكرة قاتلة ، وهي ظن أَهله أَن رقيه وازدهاره في كثرة المحسنات اللفظية ، حتى صار الشاعر يَنْظِمُ القصيدة الطويلة ، يتضمن كل بيت منها لونا من أَلوان البديع ، وكلف الكتاب بالسجع والاقتباس والتضمين كلفا شديدا ، فلا تجد كاتبا في هذا العصر يسترسل في الكتابة بدون التواء ودوران وما ذلك إلاّ لفقرهم في المعاني . واستمع لمفكر نال الإعجاب ، يشنع بهذه الطريقة التي مسخت البيان العربي ، وحصرته في اللعب بالألفاظ يقول « وقد استعمل المتأَخرون أَساليب الشعر ، وموازينه في المنثور من كثرة الأَسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين يدي الأَغراض ، وصار هذا المنثور إذا تأَمّلته من باب الشعر وفنه ، ولم يفترقا إلاّ في الوزن ، واستمر المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة ، واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه ،

(١) ديوان ابن الوردي ص ٢٣٣ طبع القسطنطينية س ١٣٠٠ ﻫ

وخلطوا الأساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصا أهل المشرق ، وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتاب الغفل جاريةً على هذا الأسلوب الذي أشرنا إليه ، وهو غير صواب من جهة البلاغة ؛ لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال المخاطب والمخاطب ...

وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العُجمة على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل ؛ لبعد أمده في البلاغة ، وانفساح خطوبه ، وولعوا بهذا المسجع ، يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ومقتضى الحال فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعيّة ، ويغفلون عما سوى ذلك . وأكثر من أخذ بهذا الفن ، وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم كتابُ المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى أنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس ، أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ، ويدعون الإعراب ، ويفسدون بنية الكلمة عساها تصادف التجنيس (١) »

وشاع التصوف والزهد في هذا العصر الذي كثر فيه نظم الشعر في الأغراض الدينية ، وفي الخمر ، والتغزل بالمذكر .

والذي يلفت النظر في هذه الظاهرة ، هو أننا نجد كثيراً من الشعراء شُهروا بالعفة والتديّن ، ينظمون القصائد الطوال في الخمر ، والغلمان .

---

(١) ص ٥٢٠ من مقدمة ابن خلدون . المطبعة البهية.

وهذا إما أن يكون إغراقا في تقليد القدماء ، فإذا أفحش بشّار ، وتغزل أبو نواس بالغلمان ، وتغنّى بالخمر ، فلا مندوحة لشعراء عصر المماليك عن ذلك مع فساد الذوق .

وماذا سيقولون إن لم يغرقوا في التقليد ؟

وهل يستطيع حتى الزاهد منهم أن يتخلص من ذلك ؟

فإذا كان الذي يعيش في القاهرة يبكي الأطلال ، ويندُب الدِّمَن ، كما ندَبَ بها زهير ، وذو الرُّمَّة ، فالتغني بالخمر أقل إغراقاً من رجل القاهرة هذا في التقليد . ولقد أشار إلى هذه الاجترار الذي أخرج الشعر عن مهيعه ، وصيّره عقيما يكاد يكون خاليا من المعنى الشعري ، أشار إلى ذلك رجل جبار الفكر ، وناقد أدبي ممتاز حيث قال « . . . فلم يوجد فيهم (أي شعراء المشرق) على طول هذه المدة (منذ مائتي سنة كما قال) من نحا نحو الفحول ، ولا من ذهب مذاهبهم في تأصيل مباني الكلام ، وإحكام وضعه ، وانتقاء مواده التي يجب نحته منها ، فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ، ودخلوا في محض التكلّم .

هذا على كثرة المبدعين المتقدمين في الرعيل الأول من قدمائهم ، والحلبة السابقة زمانا وإحسانا منهم (١) »

! !

(١) من نسخة خطية (عندي) من كتاب « المناهج الادبية » لابي الحسن حازم القرطاجني (ستاتي ترجمته باختصار) ولقد حققت هذه النسخة، وعلقت عليها، وهي الان مهيأة للطبع ترتقب ناشرا .

وإما أن يكون سبب تلك الظاهرة عدم المبالاة بقبح فاحشة الميل إلى الغلمان التي انتشرت في طبقات الشعب انتشاراً عظيماً زمن الحروب الصليبية، سيما في الوسط التركي؛ لأسباب ليس هنا محل شرحها (١) واستمرت هذه الظاهرة إلى عصر المماليك.

قال أحد شعراء هذا العصر:

يا قوم صار . . . (٢) اليوم مشتهراً وشائعا يهتز منه هز إكبار

وبرزت في قوة ظاهرة أخرى، هي ظاهرة الزهد والتصوف التي رعاها المماليك، ونفروا من الأدب وأهله؛ لعلة فيهم، فلم يجد الأدباء بداً؛ لترويج بضاعتهم من التعرض إلى ما توده طبقة من الشعب، وافرة العدد. ليس بعيداً إذن أن يكون ابن الوردي صادقا حين قال:

أَستغفر الله من شعر تقدّم لي
في المُرْدِ قصدي به ترويجُ أشعاري (٣)

ويمكن أن تُفهم هذه الظاهرة فهما آخر. أشعر بقربه للطبيعة الإنسانية، والتكوين البشري، وهو أن تكون تلك الظاهرة نتيجةَ كَبْت غرائز، وفرار من الحياة الزوجية؛ لمتاعب العيش؛ ولما شاع في هذا العصر من تصوّف وزهد، يمنعان من إجابة الرغائب بالفعل، فالتجأ الناس

---

(١) إذا كنت حريصاً على معرفة هذه الاسباب، فارجع لكتاب «الحروب الصليبية، وأثرها في الأدب العربي» لسيد كيلاني.

(٢) حُذفت كلمة لقبحها الثقيل. انظر ديوان ابن الوردي ص ٢٥٦

(٣) الديوان ص ٢٥٦

إلى القول يُسيلون عليه « لعابهم » . وهـا هو ذا ابن الوردي نفسه الذي قال إنه قصد الترويح ، يندفع في وصف المذكر في مقام النهي عن الإثم، ولكن ما حيلته ، وقد اضطرته غريزة خلقها الله ؛ لتعمل عملها ، فتحقق حكمة (١) . قال ناهيا :

والْـهُ عن آلاة لَهْـو أَطـربتْ * وعن الأَمْر دمُـرْتَجّ الـكَفَل
إن تَبَدَّى تكسف شمسُ الضحى * وإذا مـا مـاس يُزري بـالأَسَل
زاد إن قِسْنـاه بـالبـدر سنـا * أَو عدلنـاه بغصن فـاعتـدل (٢)

! !

ولم تزل الحركة العلميّة ، وحركة التأليف في نشاط وتقدم في ظل المماليك ؛ ولم يزل الأدب يتعثّر بثقل البديع والزخرفة العارية عن الجمال ، حتى فتح العثمانيون مصر ، فعمت الفوضى والاضطراب ، وصارت اللغة الرسمية ، هي اللغة التركية ، وقضى الترك على كل ما هو عربي ،وكان المنتظر منهم أن يحافظوا على ما وجدوه من الحضارة الإسلامية ، والتراث العربي ، ومـا ظفروا به في القسطنطينية من آثار البيزنطيين ، ولكنهم كانوا قوْماً لا يعرفون إلاّ السيف ، ففتحوا كثيراً ؛ ليخربوا أكثر ، ولم يدركوا ـ ولعلهم إلى الآن ـ أن السيف لا يكفي

(١) أنبه القارىء أن لهذه الاشارة علاقة بشخصية المقري ، كما سيتضح ذلك عند الكلام على شعره .

(٢) شرح لامية ابن الوردي للقناوي ص ٢٠ ط مصر س ١٢٧٨ هـ

للدوام . والذي زاد الأمر سوءاً أنهم أخذوا معهم مـا وجدوه في مصـر والشـام بعد فتحهما من كنوز العـلم والأدب والفن إلى القسطنطينية ، ونقلوا كثيراً من العلماء ، والأدباء ، والمهندسين ، وأرباب الصنـاعات إلى بلادهم (١) وأراد الفاتح بذلك « أن يعوض دار ملكه ما فقدته من العلماء الروم بسقوط الدولة البيزنطية ممن رحلوا إلى بلاد الإفـرنج ، ولا سيما إيطاليا (٢) » .

وهكذا أصبحت الأمصار العربية التي كانت مركز العلم والأدب خاوية منها ، ومن أهلها ، ولولا هذه الجوامـع المشهورة كالأزهر ، والقرويين ، والأموي ، والزيتونـة ، وحلقات كربلاء والنجف التي بقيت تقوم بعملها في دائرة ضيقة ، لدرست العربية وانهارت الثقافة الإسلامية ، فلهذه المعاقل الإسلامية فضلُ المحافظة على تعاليم الإسلام ، ولغة العرب إذاك ، ولـو في صورة هزيلة ؛ لأن علماء الدين صاروا في هـذا العصر ، يرجحون الغريب السخيف على المعقول الموزون ، وقصروا جهودهم التأليفيّة على الشرح العقيم وتحليل « العبـارات » أو الاختصـار المشوّه المعبّر عن تحجّر العقول .

والذي يحُزّ في النفس أن الانحطاط في هذه الناحية ـ خاصة ـ لم يزل كما كان زمن الانحطاط العام .

---

(١) قدرهم ابن إياس بما يربو على ١٨٠٠ شخص . انظر « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ج ٣ ص ١٢٢ طبع بولاق س ١٣١٢ هـ .

(٢) انظر خطط الشام ج ٤ ص ٥٨ طبع دمشق س ١٩٢٥

أمّا الحركة الأدبية زمن العثمانيين، فإنها كانت أشد انحطاطا من الحركة العلمية، فالكتابة الفنية أصبحت تافيقا « ليس فيه جديد إلاّ التصنع الشديد لألوان، البديع، ومصطلحات العلوم، وقد كانت هذه الأشياء توجد في عصر المماليك فتقبل؛ لأن الأسلوب كان جزلاً رصينا، فيستطيع القيام بها. أما في هذا العصر، فالأسلوب واهٍ ضعيف لا يكاد يقوم (١) ».

أما الشعر فقد تضاعفت سماجته عما كانت عليه في عصر المماليك.

وهكذا انتشر الجهل انتشاراً مهولاً (٢) وانطفأت شعلة الفكر، وأصبح الأدب مواتا خالصا. واستمع لرجل كتابتُه تصلح أن تكون شاهداً على تقهقر الفن، واحتضاره، ينعى الأدب فيقول « .... إلاّ أن الأدب في هذه الأعصار، قد هبّت على رياضه ريحٌ ذات إعصار، حتى أخلقت عرى المحامد، واسترخى في جريه عنانُ القصائد، وتقلّصت أذيال الظلال، وخطب البلاء على منابر الأطلال، وعفا رسمُ الكرام، فعليه مني السلام (٣) ».

وامتد هذا الظلام، وطال نوم العالم العربي، حتى حمل نابليون حملته المشهورة على مصر، فاستيقظ النائم، وأخذت تدبّ فيه الحياة، ولمّا

(١) ص ٢٠٦ من كتاب « الفن ومذاهبه في النثر العربي » لشوقي ضيف.

(٢) راجع « الحلقة المفقودة في تاريخ العرب » لمحمد جميل بيهم ص ١٩٢. لترى مدى جهل الناس في عصر الاتراك.

(٣) ص ٤ من ريحانة الالبا، وزهرة الحياة الدنيا، لشهاب الدين الخفاجي.

تولى مصرَ محمد علي (١٨٠٥) وأراد الاستقلال، قويت الحركة، واتصل الشرق بالغرب اتصالا، كان فيه الشرق مستهلكاً إلى اليوم، والغرب منتجا حاكما. فمتى يتساويان يا ترى إن قُدّر للشرق أن يلحَق ؟

هذا تصوير خاطف للحركة الفكرية في عصر المقري، وما تقدّمه بقليل، في المشرق موطنه الثاني. فكيف كانت الحركة العلمية والأدبية في المغرب قبل عصر المقري، وفي عصره ؟

الحركة الفكرية في المغرب :

كان المغرب العربي في العقد الرابع من القرن السابع الهجري تحكمه دول ثلاث قامت على أنقاض دولة الموحدين :

- دولة الحفصيين في تونس.
- ودولة بني عبد الوادي في الجزائر.
- ودولة بني مَرين في المغرب الأقصى.

وازدهرت من هذه الدول الثلاث دولةُ الحفصيين ازدهاراً عظيما في بدايتها، جعل من البلاد التونسيّة إذاك مجتمعا إسلاميا راقيا، يعيش في أمن ورفاهية، بعيداً عن أسباب الانحلال والضعف، وجعل من المستنصر بالله الحفصي خليفة للمسلمين، وقد بايعه بالخلافة أهل الحجاز سنة ٦٥٧ هـ كما بايعه قبل ذلك بنو مرين، وبدأت الحضارة الحفصية تتكوّن، وتنمو، ودخل حياةَ الناس الترفُ والنعيم. وفي هذه الفترة هاجر كثير

من الأندلسيين إلى شمال افريقيا ، وقصد أكثر المهاجرين البلاد التونسية ، ولاسيما العلماء والأدباء ، وأرباب الحرف . وأصبح البلاط الحفصي يعجّ بكبار أدباء الأندلس ، وعلمائها مثل ابن الأبّار (١) ، وابن سعيد المغربي (٢) ، وحازم القرطاجنّي (٣) (صاحب مدرسة خاصة في النقد الأدبي ، لم تزل مجهولة إلى الآن لدى أدباء العربية المعاصرين) وهكذا ازدهر الأدب والعلم في رعاية الحفصيين بفضل مهاجري الأندلس الذين أكرمهم الحفصيون ، ووفّروا لهم حياة مطمئنة .

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي الاديب الحافظ . ولد س ٥٩٥ هـ وتوفي مقتولا بتونس س ٦٥٨ هـ وله كتب كثيرة تجد أسماءها في مصادر ترجمته .

(٢) هو نورالدين أبو الحسن علي بن الوزير أبي عمران موسى بن سعيد المغربي الغرناطي ينتهي نسبه إلى عمار بن ياسر .
ولد بغرناطة س ٦١٠ هـ ورحل إلى المشرق مرتين ، وتوفي بتونس س ٦٨٥ هـ أما ما قاله ابن شاكر ، وابن تغري بردي من أنه توفي س٦٧٣هـ بدمشق فغير صحيح.
وقد ألف ابن سعيد كتبا كثيرة منها المطبوع ، ومنها المخطوط . ومن كتبه المخطوطة « القدح المعلى في التاريخ المحلى » منه نسخة بخزينة جامع الزيتونة رقم ٤٦٣٩ ومنه شريط سينمائي بالمكتبة العمومية (العطارين) ونسخة بمكتبة باريس ، وفي دار الكتب المصرية قسم التيمورية مصورة (رقم ٢٢١٥ تاريخ) لمختصر من هذا الكتاب صنعه أبو عبد الله محمد بن خليل.

(٣) هو أبو الحسن حازم بن محمد الانصاري القرطاجني . ولد بقرطاجنة الاندلس س ٦٠٨ هـ ورحل إلى تونس حيث توفي بها يوم السبت ٢٤ رمضان س ٦٨٤ هـ . وقد اشتهرت مقصورة حازم التي قالها في المستنصر بالله الحفصي ، وهي أحسن المقصورات التي وصلتنا . وقد طبع شرح الغرناطي على هذه المقصورة س ١٣٤٤ هـ ونشرت المقصورة منفردة في مجلة كلية الآداب بجامعة إبراهيم س ١٩٥٣ محققة بقلم الدكتو مهدي علام ، وله كتاب المناهج المتقدم ذكره .

وإذا كانت تونس في هذا العصر مركزاً عظيما لنشاط أدبي وعلمي في ازدياد ، فإن مدينة فاس ، لم تكن في تقهقر وظلام ، بل كانت فيهـا نهضة أدبية قوية ، ازدهرت في ظلال بني مرين ، وكان للأندلسيين مشاركة فعّالة في بنائها (١) ولم يزل الأدب بالمغرب العربي مزدهراً تغذّيه حياة البذخ ، وينفُخ فيه أهلُ القصور الذين بينهم وبينه ألفة لا يقل عنها شغفُ المتعلمين من الشعب ، إلى أن دبّ الضعف في دول المغرب ؛ وأخـذت تسعى نحو الانحلال ، فكسدت سوق الأدب ، وضعف التعليم ؛ لكثرة الفتن ، واضطراب الحكم . قال ابن خَلدون « فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد ، قد كاد ينقطع عن أَهل المغرب باختلال عمرانه ، وتناقص الدول فيه ، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها (٢) » .

وفى القرن التـاسع الهجري ، بدأ النزاع بين دول المغـرب المتداعية للسقوط ، وبين الاسبانيين والبرتغـاليين ، واستمر هـذا النزاع الذي كان يمثل حلْقة من حلقات الحروب الصليبية (٣) فاستولى البرتغـاليون على مدن مغربية كثيرة ، وخضع لحكمهم الساحلُ الغربي من بلاد المغرب الأقصى. واحتل الاسبان مدنا جزائرية كثيرة ، وغزا البلاد التونسية .

---

(١) راجع الحركة الادبية في عصر بني مرين في كتاب « النبوغ المغـربي في الادب العربي » لعبدالله كنون ج ١ ص ١٥٤ وإن كان هذا الكتاب تنقصه الرصانة في البحث ، واستيعاب الموضوعات .

(٢) المقدمة ص ٣٧٦ المطبعة البهية .

(٣) انظر « الحروب الصليبية في المشرق والمغرب » تـأليف محمد العروسي المطوي ص ١٩٦ ط تونس س ١٩٥٤

وهكذا أصبح شمال افريقيا ميدانَ حرب بين المسيحية والإسلام، وصوّحت الكوارث زهرةَ الأدب والفكر، وحتى حين أطرد العثمانيون الاسبان من البلاد الجزائرية، والبلاد التونسية، فإن الحركة الفكرية، بقيت في انحطاط وتدهور ـ شأنها في ظل الأتراك ـ إلى زمنَ قريب، نهضت فيه بلادنا التونسية نهضة لم يطل أمدها، حتى جاء من عمل على قضائها:

أما المغرب الأقصى، فقد ظهرت فيه أَوائل القرن العاشر دولةُ الأشراف السعديين التي أَطردت البرتغاليين من المغرب، وقضت على دولة بني وطاس؛ لتقوم على أَنقاضها، وتبني نهضة تعيد للمغرب شيئا من سالف أيامه.

حقا إن السعديين بنوا نهضة في المغرب، أرجعت للنفوس اليائسة الأمل، وبعثت فيها الحياة والنشاط، ولا سيما أيام مفخرة هذه الدولة المنصور الذهبي الذي اتسعت رقعة الدولة في أيامه، حتى بلغ نفوذه السودان، وكان يعيش عيشة بذَخ وترف، كما كان يعيش خلفاء بني العباس (١) وكان حسنَ السياسة حازما، مشاوراً في الأمور، وقد اتخذ يوم الإربعاء للمشورة، وسماه يوم الديوان، تجتمع فيه وجوه الدولة، ويتطارحون الرأي فيما يحدث من مشكلات تخص الدولة (٢) وكان واسع الاطلاع، حرَّ التفكير، حتى

(١) جعله هذا البذخ، يثقل كاهل الشعب بالضرائب، حتى كانت الرعية تشتكي ذلك منه. الاستقصاء ج ٣ ص ٩٥

(٢) الاستقصاء ج ٣ ص ٩٥

إنه لما انتشر الوباء بالمغرب ، كتب رسالة لولده أبي فارس يأمره بالخروج من مراكش إذا ظهر بها أثر الوباء ، ويأمره أن لا يقرأ البطائق الواردة عليه ، وإنما يقرأها ابنه « بعد أن تغمس في الخل » وأغضبت هذه الأوامر الناصري ، فقال : إنها منافية للشرع ، وهي من أعمال الإفرنج .

ترى كيف كانت النهضة العلمية والأدبيّة في عصر السعديين الذين تفيّأ ظلّهم أبو العباس أحمد المقري ، وتولى في عهدهم مناصبَ عليا في فاس ؟

توقفت الحركة العلمية أيام الوطاسيين توقفا تاما تقريبا . ولما استتب الأمر للسعديين ، بدأت تتحرك ، ونشط العلماء الذين شجعهم السعديون سيما المنصور الذهبي ، إلاّ أن هذه الحركة لم تعدم العوائق التي عاقتها عن استئناف السير إلى الأمام ؛ لأن علماء ذلك العصر كلفوا بالاختصار ، والتعمق فيه ، حتى أصبحت العلوم في حالة من الإبهام والجمود ، باعثة على النفرة ، فالعلوم الشرعية كانت منتشرة إذاك انتشاراً عظيما ، وحدث تحول في أشدّها انتشاراً ، وهو الفقه فالكتب التي كانت موجودة فيه أيام المرينيين ، تُركت وعوّضت بمختصرات تنافس الناس في شرحها ، وانتشر أيضا علم الكلام ، وفن القراآت ، وطغى التصوف الكاذب .

وأما علوم الأدب ، فقد انتشرت أيضا ، لا سيما النحو والبلاغة ، إلاّ أن انتشار هذين العلمين كان عقيما . فالنحو اقتصر طلابُه على كتابين ، أو ثلاثة كتب مختصرة ؛ أو حفظ منظومة لا يجاوزونها « أو تجاوز أرواحُهم الحناجر » وما أشبه الليلة بالبارحة ، والبلاغة لم يظهر لها أثر إلاّ في الألفاظ ،

والزخرفة الثقيلة ، وازدهر التاريخ ازدهاراً كبيراً في هـذا العصر ، فقد اجتمع في بلاط المنصور كبار المؤرخين كالمقري ، وابن القاضي ، والفشتالي الذي كان يقول في شأنه « نفتخر به على ملوك الأرض ، ونباري به لسان الدين بن الخطيب (١) » .

فإذا كانت علوم الشريعة ، وعلوم الأدب في هذا الهزال بإيجاز ، فالشعر والنثر الفني أثقلهما البديع ، وأفقدهما الطرافة ، وجودة التصرف في المعاني ، التكلف الفاضح ، والذوق البليد .

وما هي إلا فترة قصيرة تنتهي بموت المنصور الذهبي سنة ١٠١٢ هـ حتى تعم الفوضى ، ويشيع الاضطراب الذي بدأ في حياة المنصور ، فقد حدثنا التاريخ أن ابنه المأمون ثار عليه حين نصح له أن يقلع عن غيّه ؛ لأن ابنه هذا كان « فُسَقاً ، خبيث الطوية ، مولعا بالعبث بالصبيان ، مدمنا للخمر ، سفاكا للدماء ، غير مكترث بأمور الدين (٢) » .

وبلغ الاضطراب في المغرب أوائل القرن الحادي عشر الهجري غايته . ولما قامت الدولة الشريفية ، استمر الاضطراب ، إلا أن الحركة الأدبية لم تضمحل تماما ، بل بقي المغرب الأقصى ، هو القطر العربي الوحيد الذي استمرت فيه الكتابة العربية الصحيحة . وها هو ذا الشيخ محمد بَيْرم التونسي (توفي سنة ١٨٨٩) يقول « ولعمري إن صناعة الإنشاء

(١) انظر ص ١٦٥ من كتاب نزهة الحادي لمحمد الصغير الوفراني ط باريس س ١٨٨٨ م

(٢) الاستقصاء ج ٢ ص ٨٦

في الـدول باللغة العـربية كادت الآن أن تكون مقصـورة على دولة مرّاكُش ، وأما غيرها من الدول العربية فقد تذبذبوا ، وكادت كتاباتهم أن تخرج عن الأسلوب العربي ، بل صاروا لا يتحـاشون عن اللحن والـكلمات البربريـة بخلاف كتاب المغرب وهذا ديدنهم من قديم (١) »

ولم تزل الفتن ناتئة الـرؤوس ، حتى تولى الحكم مـولاي الحسن سنة ١٢٩٠ هـ ، فأعاد بسياسته الرشيدة القبائل النافرة ، إلى الطاعة والإذعان، وأخذ يقفو خطـوات محمد علي في مصـر ، فأرسل البعثـات لأوربا قصد التخرج في فنون العلم والصناعة ، وأَسس معمـلًا كبيراً للسلاح ، وأخـذ يسعى لنشر التعليم العربي .

وتمر أَيام قصيرة ؛ ليجيء الاستعمار الفرنسي ، ويقول على لسان مقيمه العام بالمغرب الأقصى المرشال ليوتي :

١ ـ يجب أَن تكون المدارس الموجودة في مراكش فرنسيةَ الروح والغـايـة .

٢ ـ إنـه ليست لنا أَية فائدة من تدريس اللغـة العربيـة ، ويجب أَن تهدف سياستنا إلى إبعاد القبائل العربية عن تعلم أَبنائها اللغة العربية التي لن نجني من ورائها خيراً (٢) .

* * *

(١) صفوة الاعتبار ج ١ ص ٦١ ط مصر س ١٣٠٢ هـ .
(٢) الحلقة المفقودة في تاريخ العرب ص ٢٣٠

هذه كلمة إن لم تكن موجزة ، فلم تبلغ حد الإسهاب عن الحركة الفكريَّة في المشرق والمغرب في عصر المقري ، وفي العصر الذي تقدّمه ، والذي يوضّح التعرضُ له بإيجاز تسلسلَ الحركات واتصالها ، أَو انفصالها .

وقُصد بهذه الكلمة إعطاء صورة بسيطة واضحة عن العصر وروحه ؛ لما بين الأَديب ، وبيئته ، وعصره من وشائج قوية ، وتأثّر ، وتأثير .

ترى هل شذّ المقري عن عصره ، أَم كان يمثله أحسن تمثيل ؟

ذلك ما سنراه في هذه الدراسة .

القسم الأول

حيـــــاة المقـــــري

....

أسرته :

في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط ، وقرب قلعة بني حمّاد ، مدينـة جميلة ، تحيط بها البساتين ، وتجري حولها الأنهار ، بينها وبين طُبْنة ثمانية فراسخ كما قال ياقوت .

في هذه المدينة مقّرة استقرت أسرةٌ عربيّة قرشيّة لا نعرف متى كان حلولها بها ، وكم مدّة مُقامها فيها ، وإنما الذي عُرف أنهـا استمرت بمقّرة إلى أن انتقل منها الشيخ عبد الـرحمن بن أبي بكر علي القرشي صحبة شيخه الصالح أبي مَدْين (١) إلى تِلِمْسان في القرن السادس الهجري ، وهنـاك كثرت فروع هـذه العائلة التي عُرفت بعـائلة « المقّري » وذاع صيتهـا ، وعظم جاههـا ، فهي زيادة على عروبتها القـرشيّة اشتهرت بالعلم والثراء ،

(١) هو شعيب بن الحسين الاندلسي ، شيخ المشائخ ، وسيد العارفين ، كمـا كان يلقب . توفي س ٥٩٤ هـ .

انظر ترجمته المطولة التي نقلها المقرى عن كتاب « النجم الثاقب ، فيما لاولياء الله تعالى من المناقب » لابي عبد الله محمد بن التلمساني . نفح الطيب ج ٩ ص ٣٤٢

الذي جلبته لها التجارة ؛ لأن عائلة المقري ، كانت تشتغل بالتجارة بين تلمسان ، وسِجِلْماسة ، وبلاد السودان .

قال أبو عبد الله محمد المقري جد صاحب النفح « . . . وكان التلمساني يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع ، ويبعث إليه الصحراوي بالجلد والعاج والجوز والتبر ، والسجلماسي كلسان الميزان ، يعرفهما بقدر الخسران والرجحان ، ويكاتبهما بأحوال التجارة ، وأخبار البلدان ، حتى اتسعت أحوالهم (١) » وأصيبت التجارةُ بتدهور لما افتتح التكرور السودان ، ثم رجعت إلى ما كانت عليه ، وقد تكوّنت علاقات حسنة مع التكرور ، واستمرت العائلة في أعمالها التجارية الواسعة النطاق ، حتى خلف خلف أضاعوا التمثير ، وأنفقوا مما وجدوا مع توالي الفتن ، وجَوْر السلاطين ، وبذلك اضمحلت التجارة مورد غناهم .

ولما أَدرك أبو عبد الله المقري ، لم يجد ذلك الثراء الواسع الذي يبدُو أَنه لم يعد للعائلة مرة ثالثة ؛ وأَما العلم ، فقد امتد فيما أَعلم إلى وفاة صاحب النفح ؛ وأَما الجاه فلم يزل ممتدا. فرئيس حكومة المغرب الأقصى الحالي ، ينتسب لهذه العائلة التي عَرفَتْ الثراء والمجد. وانتسبت للعلم انتسابا قويّا ، حقّق خلوداً .

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ١٣١

نسبه وولادته :

ومن هذه الأسرة صاحبنا شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحي ابن عبد الرحمن بن أبي العيش بن محمد ، أبو العباس المقري التلمساني .

قال في مقدمة النفح ، وفي صفحة ٣٤٢ من الجزء التاسع ، إنه ولد بتلمسان ، ولكنه لم يعيّن لنا سنة ميلاده ، وكذلك الذين كتبوا عنه ، فإنهم أهملوها أيضا . ويرى الأستاذ ليفي بروفنسال ، أنه ولد سنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ ـ ١٥٩٢ م) ولكن قول المقري نفسه « ... إلى أن ارتحلتُ عنها (يعني تلمسان) في زمن الشببة ، إلى مدينة فاس سنة تسع وألف (١) » يدل على أنه ولد قبل هذا الزمن ؛ لأن من بلغ زمن الشبيبة ، فقد جاوز تسع سنين ؛ ويرى الأستاذ عبد الله عنان ، أنه ولد سنة ٩٩٢ هـ (١٥٨٤م) ويشير إلى الفِقْرة المتقدمة ، ويستدل أيضا بإشارة المقري حين التحدّث عن اعتزامه كتابة النفح ، إلى شبابه الذاهب الذي قضاه ببلاد المغرب قبل سفره إلى المشرق ، يستدلّ بذلك على انه كان إذاك في نحو الخامسة والثلاثين .

ونستطيع أن نستدل أيضا على أنّ المقري حين رحل إلى فاس المرة الثانية ، لم يكن عمره ١٣ سنة حسب تاريخ الولادة الذي عيّنه بروفنسال ، وإنما كان عمره ٢١ سنة إن لم يكن أكثر بقول المقري « ... بعد أن نعمنا برهةً من الزمان في ظلال الأمان ، وقطعنا نبْذة من الشباب في مواطن

---

(١) نفح الطيب ج ٩ ص ٣٤٢

الأحباب » فالمقري زيادة على أنه كان في عهد الشباب بتلمسان ، فقد قطع منه نبذة .

تعلمه :

نشأ المقري بتلمسان في ظل والده محمد المقري ، الذي كان شاذليّ الطريقة (١) ولهذه الفِقْرة أهمّية سيأتي بيانها .

ولما كبر قليلا لقن القرآن الكريم لحفظه ، ولازم حلقات العلماء في تلمسان التي كانت في ذلك العصر مركزاً عظيما للدراسات الدينية ، وأسعفته حافظته الجبارة التي كان يتفوّق بفضلها على أقرانه في الدراسة ، كما أعلمنا بذلك ، فإذا هو يعلم من أَمر الحديث والفقه ، وعلم الكلام ، وسِيَر الرجال الشيء الكثير ، ولم يزل حدَثا .

والشيخ الذي أفاده كثيراً ، ورعاه ، هو عمه أبو عثمان سعيد بن أحمد المقري ، فقد قرأ عليه صحيح البخاري سبع مرات . وها هو ذا أبو العباس نفسه ، يشير إلى قراءته البخاري على عمه في إحدى الإجازات فيقول :

وقد أخذتُ جامع البخاري * عن عمي الإمام ذي الفخار
المقري سعيد الامام عن * محمد يدعى خروفا حين عنّ (٢)

وروى عنه الكتب الستة عن أبي عبد الله التَّنَسي ، عن والده محمد بن عبد الله التنسي ، عن أَبي عبد الله بن مرزوق ، عن أَبي

(١) انظر رسالة الصديقي في آخر فتح المتعال مخطوطة الصادقية رقم ٩٧٥ ص ٣٩٩

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٨٥

حيّان، (١) عن أبي جعفر بن الزبير، عن أبي الربيع، عن القاضي عياض بأسانيده المذكورة في الشفا (٢)

ولم يزل المقري في تلمسان «بين دراسة ودراية ورواية، وممارسة أمور تبعد عن طرق الغواية، وتحبير طروس، وملازمة دروس، ومثول بين يدي أشياخ مجالستهم نامية الغُروس» (٣) إلى سنة ١٠٠٩ هـ

رحلته إلى فاس:

في أصيل من أصائل سنة ١٠٠٩ هـ رحل المقري ـ أول مرة ـ إلى فاس، وأخذ هنالك عن الشيخ القصّار، وابن أبي النعيم، وأحمد بابا التُنبُكتي السوداني، وابن عمران وغيرهم.

وبقي في فاس إلى سنة ١٠١٠ هـ (٤) وفي أواخر هذه السنة، عاد إلى تلمسان، ثم عاد مرة ثانية إلى فاس سنة ١٠١٣ هـ حيث استقر بها إلى أن ارتحل إلى المشرق. أما ما قاله عبد الله عنان من أنه زارها مرة أخرى سنة ١٠١١ هـ فغير صحيح. فالمقّري يخبرنا بأنه عاود الرجوع في سنة ١٠١٣ هـ

(١) أشار المقري إلى أن روايته، تتصل بأبي حيان من طرق عديدة. نفح الطيب ج ٣ ص ٣٣١

(٢) الاحاديث المسندة في الشفا ستون حديثا جمعها بعضهم في تأليف مستقل.

(٣) من مقدمة أزهار الرياض.

(٤) وفي هذه السنة (١٠١٠ هـ) ذهب إلى مراكش، وحضر احتفال المنصور الذهبي بالمولد النبوي الشريف. انظر حديثه عن ابن عباد في نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٩ الطبعة الازهرية.

فقط . أما السنة التي ذكرها الأستاذ ، فلم نعثر عليها . وما قاله صاحب صفوة مَن انتشَر فيما نقله عنه مؤلف تعريف الخلف من أن المقري « رحل لمرّاكش عام ١٠١٠ هـ فاقام بها سنتين ، ثم رجع إلى فاس (١) » فيظهر أنه تخليط .

ورحلة المقري إلى فاس لها أسباب ، لم يذكرها حين تحدث عنها . وقال محققو أزهار الرياض إن هنالك أُسبابا سياسيّة ، اقتضت منه الرحيل ، ولم يُميطوا عنها اللّثام (٢)

ويبدو أَن هذه الأسباب التي لا نشك في وجودها ، لم تكن هي الباعثة على الرحيل في المرة الأولى ، وإنما هي التي اضطرته للرحلة مرة ثانية ، وجعلته يستقر بفاس .

والذي جعلنا لا نشك في وجودها كلام المقري نفسه في مقدمة أَزهار الرياض الذي يحنّ فيه إلى بلاده ، ويشكو من مفارقة مرتَع الصّبا ، وبلد الأهل والأحباب ، ومع ذلك لا يستطيع الزيارة ، ويشكو أَيضا من

---

(١) ص ٥٤ من تعريف الخلف . . .

(٢) يقول الاستاذ الشرايبي (من فاس) في مقال نشره عن المقري في مجلة الرسالة س ١٩٣٥ عدد ١٠١ و ١٠٢

إن أبا العباس ، حركته نفسه الطموح إلى مشاهدة آثار الفن الاندلسي الجميل ، فرحل إلى فاس وارثة الحضارة الاندلسية ، ولم يستدل على ذلك بدليل ، وهو في أشد الحاجة إليه ، لان تعليل رحلته إلى فاس ذاك التعليل غير مطمئن إليه ، ولا تؤيده حياة المقري الاولى ، ولا كلامه .

رزايا الدهر ، وضرباته « . . . وكثيرا ما يحرك ذلك (يعني رسائل الأقارب والإخوان) مني كامِنَ الشّوق ، شبّ عَمْره عن الطوْق (١) ، وأجد من لواعج الأوار ما وجده الفرزدق عند مباينة النّوار (٢) :

بلادُ الجزائر ما أمرَّ نواها * كلف الفؤاد بحبها وهواها

يا عاذلي في حبّها كن عاذري * يكفيك منها ماؤها وهواها

. . . وكنا نحسب أن الدهر لا يدور ، وأن الأعجازَ صدور ، والأهلّة بدور حتى ضرب الدهر ضرباته ، وبدّد الرفيقَ من ذلك الفريق وأبانه ، فلم تتأوّد قدود الأغصان ، ولم تترنّح أَعطاف البان ، وانقطعت الأسباب ، عن مواصلة الجيران والأحباب . . . وها أنا الآن أحاول إطفاء لهيب بالضلوع وَقَد ، وأُعالج أَدواء سقم جلّ ، وكيف لا وقد :

رُوِّعت بالبيْن حتى ما أَراع به * وبالمصائب في أَهلي وجيراني

لم يترك الدهر لي عِلْقا أَضنّ به * إلاّ رماه بفقد ، أَو بهجران (٣) »

واستقر المقري بفاس التي كانت تزخر بالعلماء والأدباء ، وكان ذلك

---

(١) تضمين للمثل الذي قاله جذيمة الابرش لعمرو بن عدي ، ابن أخته رقاش حينما رأى عليه طوقا من ذهب ، طوقته به أمه بعد غيبة طويلة . والمثل « شب عمرو عن الطوق » أو « كبر عمرو عن الطوق » انظر قصة المثل في تاج العروس مادة طوق ج ٦ ص ٤٢٨ - أمثال العرب للضبي ص٨٦ ط مصر س ١٩٠٩

(٢) يشير إلى قول الفرزدق :

ندمت ندامة الكسعي لما * غدت مني مطلقة نوار

(٣) الازهار ج ١ ص ١١

في فاتحة عصر السلطـان أبي المعـالي زيْدان السعدى بعد مـا قضى أحمـد المنصور سنة ١٠١٢ هـ

وسنحت الفرصة له للدرس والبحث ، وإظهار تفوّقه الذى كان يشعر به في دخيلة نفسه ، وإن كان يتظاهر بالعجز والقصور ، وتلك نغمـة العصر التي يبالغ فيها البعض إلى درجة تحقير النفس المتكلف ، ووصْم الذات بما يعيبها أشد العيب .

قال عبد الكريم الفكّون مفتي قسنطينة في مطلع القرن الحادى عشر الهجري« والعذر لي أني لسُت من أهل هذا الشـان ، والاعتـراف بأني جبان وأي جبان ، والـكمال لـكم في الرضـا والقبـول ، والكريم يُغضي عن عورات الأحمق الجهول (١) »

ما أشدّ حاجته إلى ترك هـذه الأوصاف المخجلة ، ولـكنه التواضع المزيّف الممتد الذيول !

واتصل المقري في فاس بالأشراف السعديين ، وفي مقدمتهم السلطان زيدان الذى مكّنه من مكتبته ، وتولّى في أيامه منصبَ الإفتاء الذى بقي فيه ١٣ سنة (٢) ويقول المحبّي (٣) أن الفتوى صارت للمقرى في زمن أحمد المنصور . وهذا يبدو غير صحيح ؛ لأن المقرى بقي في منصب الإفتـاء ، حتى رحل إلى المشرق سنة ١٠٢٧ هـ فإذا تولى المنصب في زمن المنصور ،

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٩

(٢) راجع الفكر السامي للشيخ الحجوي ج ٤ ص ١١٠

(٣) خلاصة الاثر ج ١ ص ٣٠٢

تكون المدة التي قضاها في الخطة أكثر من ١٣ سنة ، كما أن رجوعه إلى تلمسان ، وخروجه منها لأسباب مكرهة غير مباشرة أعماله في فاس ، يدل على أنه لم يتقلّد الإفتاء في رحلته الأولى إلى فاس .

وذاع صيت المقرى في فاس ، سيما بعد ما ألّف كتبا كثيرة منها أزهار الرياض ، وتولى بعد وفاة الشيخ الهراوى سنة ١٠٢٢ هـ الإمامة والخطابة بجامع القرويين ، وسكن في دار ابن عبّاد الملاصقة للجامع ، كما أخبرنا بذلك وهي الدار التي يسكنها خطيب الجامع ، ولم تزل قائمة الذات إلى الآن . ويفهم من كلام عبد الله عنان ، أن المقري تولى الإفتاء بعد الإمامة والخطابة وهذا غريب من الأستاذ ، والمقري يقول « على أني سكنت محلّه (يعني ابن عبّاد) لما توليتُ الخطابة والإمامة من جامع القرويين بفاس المحروسة مظافين إلى الفتوى (١) »

ولم يزل المقري في فاس يتمتع بحُظوة وتقدير ، ومكانة علمية مرموقة بين طلاب المعرفة ، إلى أن رحل إلى المشرق قاصداً حج بيت الله الحرام ، وفي نفسه أشياء ليس منها الطواف ، وترك المخيط .

رحلته إلى المشرق :

بعد إقامة طويلة في مدينة فاس التي طالما تغنّى بمحاسنها المقري ، وأشاد بجمالها ، وجوّها الشعري الساحر « . . . ديباجها ربيعّي ،

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٧ الطبعة الازهرية .

وامتزاجها بالنفوس طبيعي ، ولم لا وقد نظمت المفاخر ، ونسّقتها ، وجمعت المآثر ، ووسَقَتها ، جادتها غُرُّ السّحب ، وسقتها :

بلادٌ بهـا الحصباءُ درٌّ وتربُهـا * عبـيرٌ، وأنفـاس الرياح شَمـول

تسلسل منها ماؤها ، وهو مطلقٌ * وصح نسيمُ الرّوض ، وهو عليل

تولى أبو العباس خلال هذه الإقامة مناصب عليـا ، وحظي بالرضا من العلماء والأدباء ، وأهل القصور .

بعد هذه الإقامة الحبيبة إلى النفس ، يضطر إلى الرحيل ، فيركب البحر مسرعا ، واصفا أهواله ، وجلًا من مطاردة القرصان النصارى .

ما الذي اضطره إلى هذه الرحلة يا ترى ؟

إن الحوادث المتصلة الحلقات بالمغرب الأقصى ، والتي اشتد أُوّارها بعد وفاة المنصور الذهبي ، إلى انقراض دولة السعديين ، وما تعرضت له فاس خلال هذه الفترة من شدائد وأهوال ، ليس أشدّها رمي الأطفـال في القدور (١) إن هذه الحوادث وحدها ، تكفي بأن تكره المقري العالم الذي هو في مسيس الحاجة إلى الاستقرار ، على الرحيل . أَما وقد كان للمقري بها اتصال وثيق ، فما من رحيله بدّ ، وما لإقامته من سبيل .

وهذا الاتصال علله الشيخ مخلوف بقوله « وسبب خروجه من فاس : أَن سلطانها طلب من العلماء فتوى في أَمر نزل ، وإعطاء العرائش للنصارى ، فأفتى من أَفتى ، وهرب جماعة منهم صاحب الترجمة (٢) »

(١) الاستقصاء ج ٣ ص ١٢٠

(٢) شجرة النور الزكية ج ١ ص ٣٠٠

والذي يبدو أن سبب خروجه من فاس ، وتوجهه إلى المشرق ، ليس هذا الذي ذكره الشيخ ، وإن كانت قصة الفتوى ثابتة . فقد حدثنا التاريخ أن الشيخ المأمون بن المنصور السعدي ، ذهب إلى ملك إسبانيا مستعينا به على أخيه السلطان زيدان ، ولما أبى الملك إعانته ، راوده الشيخ على ان يترك أولاده ، وحشمه رهنا عنده ، فقبل الملك الإعانة بعد ما قبل المأمون تسليم العرائش للنصارى عند ما يتم له الأمر . ولما تم له الأمر سلم العرائش وسمع لنقمة الشعب هديرٌ . وويل للملوك من هدير الشعوب الناقمة ! !

فما هي الحيلة التي سيخفف بها المأمون من الغليان إن لم تكن فتوى من علماء الدين ؟

وكُتب سؤال « هل يجوز أن يفدي السلطان أولاده المرهونين بثغر العرائش » وعُرض على علماء فاس ، فحضي بالقبول ، و « حكم الجواز » وكان من بين هؤلاء العلماء الذين عرض عليهم السؤال أحمد المقري الذي اختفى هو ، وجماعة مدة ، حتى صدرت الفتوى (١)

والذي جعلنا نشك كل الشك في أن تكون هذه القصة سبب خروجه من فاس ؛ لأنها وقعت سنة ١٠١٩ هـ أي قبل رحلة المقري بسبع سنين ، وكلام الشيخ مخلوف ، يفهم منه أن المقري خرج فاراً إلى المشرق ، لما طُلبت الفتوى . وهذا ليس حقا ، بل المقري بقي في فاس بعد ذلك ، وتولى الإمامة والخطابة مما يدل على مكانته عند السلطان .

---

(١) الاستقصاء ج ٣ ص ١٠٦

أما سبب رحلته الذي يبد وأنه الـواقع ، هو اتهامه بالميل إلى جماعـة شراقة . فقد كان عبد الله بن الشيـخ الذي يظهر أنه يمطف على أبي العباس ، يعتمد الاعتماد كله في معاركه ، وإخماد الثورات على شراقة ، وهم عرب باديـة تلمسان ، وما هو قريب منها ، وسُمّو بذلك ؛ لأنهم في ناحية الشرق من المغرب الأقصى ، والعامة يلحنون ، فيقولون شراكة ، وشعور عبد الله بأنهم أنصـاره ، وهم الذين مكنوه من الأمر ، جعلـه يبيـح لهم أَرزاق الناس وأَعراضهم .

ودخل هؤلاء البدو مدينة فاس ، فعم الاضطراب ، وكثر الاعتداء ، وانتهكت الحرمات ، فغضب أهل فاس ، وثاروا بقيادة أبي الربيـع سليمان الزرهوني ، وقاتلوا جنود السلطان ، وأخرجوهم من المدينة .

ولما ضعف أمر السلطان ، وتهمة الميل إلى شراقة ، لصقت بأبي العباس ، خشي على نفسه من أهل فاس ، فخرج مسرعا ، واجفَ القلب .

وإذا رجعنا إلى المقـري نفسه ، فإننا نجده يلوّح تلويحـا ، ويومض إيماضا ، ويفر من التصريح والإبانة ، فرار ذي الفعلة النكراء من نفسه ، كعادته في الدوران والاحتراز في مثل هذه المواقف ، فهو لا يعلمنا بسبب رحلته في صراحة ووضوح ، وإنما يقـول « إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقّب ، أوردّ . . . برحلتي من بلادي ، ونقلتي عن محل طارفي وتلادي ، بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه ، لو لا أن

سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصا ، وطما به بحر الأهوال . . . وذلك أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين بعد الألف (١) »

ولكنه لا يعلمنا لماذا طلب منه السلطان الرحيل ؟ سيما والسلطان الذي هاجر في أيامه ، هو الذي ولاه منصب الإمامة والخطابة ، وهو الذي جلب جماعة شراقة الذى اتُّهم أبو العباس بالميل إليها .

والملاحظ أن المقري في مناسبة أخرى لا يشير إلى أمر السلطان ، وإنما يقول : إنه خرج قاصدا الحج الذي جعله مطيّة لغيره « ثم ارتحلتُ بنيّة الحجاز ، وجعلت إلى الحقيقة المجاز (٢) »

وهكذا خرج المقري من فاس مختفيا ، تسمع لقلبه وجيبا ، وتعلم أن لنفسه حديثا وأي حديث ، بعد ما دخلها مقبلا على الدرس والتحصيل ، متمتّعا بجمال المدينة ، مرتاحا لرقة أهلها ، بينه وبين الصدارة في بلاط المنصور صلة وثيقة ، وبينه وبين الحظوة عند أبي المعالي زيدان صلة أوثق .

المقَري في الحجاز :

ها هو ذا أبو العباس ، تضطره عوامل قاسية إلى مغادرة فاس ،

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٨ ، وأنبه هنا أن عبد الله عنان بعد ما أحال على النفح عند إشارته لهذه الفقرة في حديثه عن أسباب رحلة أبي العباس إلى المشرق ، أحال أيضا على أزهار الرياض ج ١ ص ٣ وهذا غير صحيح ، لان إشارة المقري في الازهار ، تتعلق برحلته من تلمسان إلى فاس ، لا من فاس إلى المشرق .

(٢) نفح الطيب ج ٩ ص ٣٤٢

وإكراه النفس على غير ما تود ، فيعقد العزم على الرحيل في أواخر رمضان سنة ١٠٢٧ هـ ويمر بمراكش ، ويُنشد صاحبها متمثلا بقول علي بن عبد العزيز الحَضْرمي :

محبّتي تقتضي مُقامي * وحالتي تقتضي الرحيلا

فيجيبه صاحب مراكش بقوله :

لا أوحش الله منك قوما * تعوّدوا صنعك الجميلا

ولكنّ بيت شعر لا تبطل عزما من ورائه خشية ، وفي نفس صاحبه هواجس ، وفي مستقبله ظلمة ، فلا يسكن هذا الخافق ، إلاّ بعد الابتعاد عن وسط الفتنة والكيد .

ويركب المقري البحر من ثغر تطاوين بغرب الجزائر (١) في ذي القعدة من سنة ١٠٢٧ هـ ويهول البحر ، وتتكسّر المجاديف ، ويشرف المركب على الهلاك ، وتيأس النفوس من النجاة ، فيرسل المقري مثال النعل الشريف إلى ربان السفينة ؛ ليتوسل به ! وينجي المركب من الغرَق ، ويصل إلى تونس ؛ ليسافر منها إلى ثغر سوسة وفي هذه المرحلة ، تشتد الأمواج من جديد ، وتبعث في النفوس الرّوْعَ ، وظلمة الحياة .

ولم يزل البحر يقسو على المركب مرة ، ويلين أخرى ، ولمّ تزل نفوس راكبيه بين فسحة الأمل ، وظلمة اليأس ، حتى وصل المركب

(١) راجع ص ١٨٧ من فتح المتعال مخطوط بالصادقية رقم ٩٧٥

الإسكندرية ، ومن هناك قصد المقري القاهرة ، ولما وصلها بهرته معالمها ومحاسنها ، فإذا هو ينشد قول ابن مماتي :

جزيرةَ مصر لا عدتْك مسرّةٌ * ولا زالت اللذاتُ فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن قامة * يميت ويُحيي هجرُها ووصالها

ويقيم مدة قصيرة في القاهرة ، ثم يركب البحر قاصداً أرض الحجاز ، أو « المهم الأعظم ، والمقصد الأكبر » كما يلذّ له أن يقول ، وتطأ قدماه تراب مكّة ، ويستولي عليه شعوره الديني ، فإذا هو في غيبوبة صوفيّة ، وإذ هو حين يبصر البيت الحرام ، يغيب عن الوجود ، أو يكاد (١) وينشد قول الشبلي :

قلت للقلب إذ تراءى لعيني * رسمُ دارٍ لهم ، فهاج اشتياقي
هذه دارهم ، وأنت محبٌّ * ما احتباس الدموع في الآماق ؟
والمغاني (٢) للصّبّ فيها معاني * فهي تُدعى مصارع العشّاق
حُلَّ عقدَ الدموع ، واحلُل رباها * واهجر الصبر ، وارع حق الفراق

وفي أوائل ذي القعدة من سنة ١٠٢٨ هـ أتمّ المقري العمرة ، وبقي يترقب أيام الحج ، ولما أدى فريضة الحج ، أراد أن يقيم في مكة ، ولكن حال من دون ذلك حائل . وقصد بعد ذلك المدينة المنوّرة ، ولما قضى مدة بجوار الرسول عليه الصلاة والسلام ، رجع الى مصر في محرم سنة ١٠٢٩ هـ .

---
(١) نفح الطيب ج ١ ص ٥٠
(٢) المنازل .

وتردد كثيرا بعد ذلك على مكة والمدينة ، فلم يـأت صفر سنة ١٠٣٧ هـ حتى كان قد زار مكة خمس مرات ؛ وزار المدينة أيضا سبع مرات.

وفي خلال هذه الزيارات الكثيرة ، جاور في مكة مـدة من الزمن كما كانت التقاليد في ذلك العصر ، وألقى بها دروسا كثيرة ؛ وأقام في المدينة زمنـا مكّنه من التأليف (١) وإلقـاء دروس في الحـديث الشريف بالروضة النبويّـة .

ومن الأماكن المقدسة التي زارها المقري بيت المقدس ففي ربيع سنة ١٠٢٩ هـ رحل إليها ، ثم عاد الى القاهرة ، ثم عاد إليها مرة ثانيـة في أوائل رجب سنة ١٠٣٧ هـ وبقي هنالك ٢٥ يوما ، وألقى بالمسجد الأقصى ، والصخرة المنيفة عدة دروس ، وزار البقاع المقدسة هناك .

وهكذا يتبيّن لنا أن كلف المقري بالأماكن المقدسة ، كان شديدا ، فـكلما سنحت له فرصة لزيارة أحد المساجد الثلاث ، إلاّ اغتنمها ، وحسبها منة من الله وفضلا ، وهذه الزيارات تكشف لنا عن جانب كبير الأهمية من جوانب شخصيـة المقري ، فهي تُبين عن إحساسه الـديني المسيطر ، وتصوّفه الغير الواعي ، وفراغ حياته مما يقتضي الاستقرار ، ويُشعر بالزمن ، فهو إمـا يحـرر في موضوع ما ، أو قل يجمع ما حفظ فيه ، أو يلقي درسا من الـدروس ، يعقبه إمطـار يـده تقبيلًا ، أو هـو يشق البحر ، أو ينهب الأرض نهبا لأحد المساجد الثلاث .

---

(١) عند الحديث على مؤلفات المقري ، سأشير إلى الموضوعات التي كتب فيها بالمسجد النبوي .

وليس من التعمق البعيد في البحث أن نرى أن لاضطراب حياة المقري الخاصة ، وكساد سوق المعرفة ، ولمتاعب عيشه ، ومشاكله الزوجية ، أثرا فعّالا في هذه الزيارات « والتبرك » وإن كان ذلك أظهر ميزة العصر .

المقري في دمشق :

سمع أبو العباس كثيرا عن أهل دمشق ، ونبل أخلاقهم ، وجمال بلاد الشام ، وحسن معالمها . أليست بها الغُوطـة الغناء ، وبَرَدَى المنساب في هدوء وصفـاء ؟

سمع المقري ذلك ، وأكثر منه ، فتاقت نفسه إلى عاصمة الأمويين ، وحنّ لتلك الديار ، ولكنه لم يسرع في الرحيل ، حتى اجتمع في مكة بالشيخ عبد الرحمن بن شيخ الإسلام عمـاد الدين ، فزاده رغبة في زيارة دمشق ، ورياضها ، وجامعها الأموي البديع الهندسة .

وبقيت هذه الرغبة تلح حتى منتصف شعبان سنة ١٠٣٧ هـ فعزم على زيارة دمشق ـ وهو إذاك في بيت المقدس ـ فدخلها في أواخر شعبان(١) من تلك السنة ، وبهرتـه دمشق ، وشعر فيها بامتـداد الأمل ، وانشراح الصدر ، وإذا أبو العباس ، ينشد في نشوة وسرور :

تزيد على مر الزمان طلاوةً * دمشقُ التي راقت بحلو المشارب
لها في أقـاليم البـلاد مشـارق * منزّهـة أقـمارهـا عن مغـارب

(١) في خلاصة الاثر أنه دخل في أوائل شعبان س ١٠٣٩ هـ ، وهو خطأ .

وطلب في دمشق مسكنا ، يكون قريبا من الجامع الأموي ، فأنزلته المغاربة في مكان لا يليق به ، وكأنهم أرادوا ألاّ يريحوه من حسد أبناء وطنه الذي شكا منه في تألّم ، وقلق . ولما سمع به أحمد بن شاهين أَرسل إليه مفتاح المدرسة الجَقْمقيّة (١) مع قصيدة عبر فيها عن ابتهاجه بقدومه (٢) .

وأكرمه علماء دمشق ، وأدباؤها إكراما لم ير مثله في مكان آخر ، حتى في مدينة فاس . « . . . فلما حللت بدارهم ، ورأيت ما أَذهلني من سبقهم للفضل وبدارهم (٣) صدق الخبر » وأشاد كثيرا بفضل عبد الرحمن ابن عماد الدين ، وبفضل أحمد بن شاهين خاصة ، وأشار إلى مكانته في نفوس أَعيان دمشق « . . . فكم له (يعني ابن شاهين) أَسماه الله ، ولغيره من أَعيا دمشق لديّ من أَياد ، يعجز عن الإبانة عنها ، لو أَراد وصفها قُسّ إياد »

أَما مكانته العلمية ، وشخصيته الأدبية ، فقد طغت في دمشق على كل مكانته ، وأَصبح أَبو العباس شيخَ الأدباء والعلماء ويكفيك دليلا ذلك

---

(١) هي شمالي الجامع الاموي أسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانتزعها الملك الناصر حسن س ٧٦١ هـ وأمر بعمارتها ، فبنيت بالحجر الابلق ، وجاءت في غاية الحسن ، واحترقت في فتنة تيمور ، فجدد بنيانها سيف الدين جاقماق ، وخص الخانقاه بالصوفية ، وأضاف إليها مدرسة للايتام وتربة ، ودرس بها جماعة ، وجعلت في القرن الماضي مدرسة للذكور ، وهي اليوم في حالة خراب ، أو ما يقرب منه . انظر خطط الشام ج ٦ ص ٩١ ط دمشق س ١٩٢٨

(٢) نفح الطيب ج ٣ ص ١٧٠

(٣) يعني المبادرة .

اليوم الذي لم يزل المؤرخون يشيرون إليه ، وهو يوم الأربعاء ١٧ رمضان سنة ١٠٣٧ هـ الذي ألقى فيه درسا بالجامع الأموي حضره الكبار والصغار ، حتى ضاق بهم المكان ، وأدهش السامعين بغزارة علمه ، وقوة حافظته ، وفصاحة لسانه . واعترف الدمشقيون للمقري بالفضل والعلم ، فتقاطر عليه طلاب الإجازة ، وتزاحم الناس في الأخذ عليه . ولقد أشار بنفسه إلى مكانته المرموقة بعد جحود ونكران في غير دمشق « فهم الذين نوّهوا بقدري الخامل ، وظنوا مع نقصي أن بحر معرفتي وافر كامل ، حسبما اقتضاه طبعهم العالي ، فلو شريت بعمري ساعة ذهبت من عيشي معهم ما كان بالغالي »

وكان لأهل دمشق فضل على الثقافة العربية ، والأدب المغربي خاصة ؛ لأن فكرة تأليف نفح الطيب لم تدر بخلد المقري إلا هناك ، وسأشير إلى اتصالها عند الحديث على ظروف تأليف النفح .

لم يزل أبو العباس في حظوة وإكرام على ضفاف بردى إلى أن رجع إلى القاهرة أواخر شوال سنة ١٠٣٧ هـ (١) وقد تألم كثيرا لهذا الفراق الذي يبدو أنه مكره عليه كما سيأتي بيانه ، فهو يخبرنا بأنه قبل أن يزور دمشق كان في حنين دائم إلى وطنه . أما بعد أن زارها ، فإن شوقه ضعف ، وأصبح هواه مقسّما « . . فكأنها بلدي التي بها ربيت ، وقراري الذي

(١) في خلاصة الاثر خامس شوال س ١٠٣٩ هـ وهو خطأ . راجع نفح الطيب ج ٩ ص ٣٤٢ . وأنبه هنا أن المقري يقول في مكان آخر أنه أقام بدمشق إلى أوائل شوال .

لي به أهل و بيت . . وها أنا إلى هذا التاريخ لا أرتاح لغيرها من البلدان ، ولا يشوقني ذكر أرض بابل ، ولا بغدان (١) »

ولم تُنس القاهرة الشامَ ، وفضل أهله ، فإذا هو ينشد على ضفاف النيل متألما لفراق نسيم الغوطة ، وأهل دمشق :

أحبتنا والله مذ غبت عنكمُ * سهادي سميري ، والمدامع مدرار
ووالله ما اخترت الفراق ، وإنه * برغمي ولي في ذلك الأمر أعذار
إذا شام برَق الشام طرفي تتابعت * سحائب جفني ، والفؤاد به نار

لم يزل حنين المقري إلى دمشق ، وإلى تلك الأيام التي قضاها هناك مطمئنا ، لولا أسباب تربطه بالقاهرة يتألم لها ، لم يزل يراوده على العودة ، ولكنه رغم شوقه الملحاح لم يخبرنا أنه رجع مرة ثانية إلى الشام إلى سنة ١٠٣٩ هـ أي السنة التي أتم فيها تأليف نفح الطيب كما سيأتي ، ويعلمنا صاحب خلاصة الأثر أن المقري عاد مرة ثانية إلى دمشق في أواخر شعبان سنة ١٠٤٠ هـ.

وهكذا كان تعلق أَبي العباس بعاصمة الأمويين شديدا ، وكان صادق الحب لأهلها ، ففيها نال الإعجاب والتقدير ، وخفت وطأة الحياة ، ومتاعب العيش ، ووجد في طبيعتها ما عهده في جو تلمسان وفاس من مياه تنساب ، فتنسي جدب الحياة ، ورياض تضوع ، فتشغل عن تعفن الوسط الذي زاده الحكم التركي كراهة .

(١) نفح الطيب ج٣ ص ١٤٨

المقري في مصر :

يقول المقري أنه دخل مصر في رجب سنة ١٠٢٨ هـ (١) ويبدو أن دخوله هذا، هو الأول وقبل ذهابه إلى الحج . وما جاء في خلاصة الأثر من أن المقري ورد مصر في رجب سنة ١٠٢٨ هـ بعد أن أدى فريضة الحج فغير صحيح ؛ لأن المقري يصرح أنه بعد رحلته البحرية والبرية الشاقة ، وصل إلى مصر ، فبقي فيها مدة قليلة ، ثم قصد الحرمين الشريفين ، وهو القصد الأول كما يفهم من كلامه ، فهو إذن زار مصر في التاريخ المذكور قبل أن يحج ، ويدل كلام المحبي أيضا على أن المقري بلغ المشرق في أواخر سنة ١٠٢٧ هـ وذلك الذي صرح به عبد الله عنان (٢) وهو غير صحيح فيما يبدو ؛ لأن المقري يذكر لنا أنه ركب البحر من غرب الجزائر في ذي القعدة سنة ١٠٢٧ هـ ويشير إلى أهوال البحر ، وتوقف السير عدة مرات « وحصل لنا في هذه السفرة أيضا أن الريح منعتنا من السفر ، ونحن في ساحل بلاد العدو الكافر (٣) » إذن فالمدة لا تكفي للوصول إلى مصر بله الحج ، ويقول لنا المقري أيضا أنه أضاف شيئا لحاشيته « إفادة المغرم المغرى

(١) نفح الطيب ج ٩ ص ٣٤٢

(٢) انظر تراجم إسلامية ص ٢٤٧ وجاء أيضا في آخر نسخة مخطوطة من « إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة » ضمن مجموعة بخزينة جامع الزيتونة رقم ٢١٤٢ أن المقري دخل مصر لاول مرة س ١٠٢٧ هـ وذلك خطأ .

(٣) من فتح المتعال .

بتكميل شرح الصغرى » بثغر الإسكندرية سنة ١٠٢٨ هـ (١) ويظهر أن ذلك كان بإثر وصوله إلى مصر من المغرب.

وبعد ما أدى أبو العباس فريضة الحج ، وزار المدينة ، رجع إلى مصر في محرم سنة ١٠٢٩ هـ ليعود منها إلى وطنه ، ولكن عاقته عن السفر عوائق فأقام بها ، يترقب سنوح فرصة ، وأشاد في أول إقامته ، بمصر وأهلها « فإذا ذكر العلم ، فهم سباق غاياته ، أو الفهم فهم رافعوا راياته ، أو الإحسان فشموس آياته ، أو القرآن فحافظوا آياته ، ذات الأزهر الأبهى الأبهر (٢) » وما هي إلاّ مدة تمر ، حتى تتنكر له القاهرة ، ويضجر المقري من المقام فيها ، فإذا هو يسافر لأقطار أخرى ، ولكنه يعود إليها مضطرا من حين لآخر . وإذا بحثنا عن أسباب هذه النفرة من المجتمع القاهري ، فسنجدها كثيرة منها مشاكل الأسرة ، ومصاهرة الوفائيين ؛ ومنها متاعب العيش ، فقد فقد المجتمع القاهري « في ظل النير التركي بهاءه وسعته ورخاءه ، وعفت روعة الأزهر الذي كان من قبل موئل الوافدين من كل صوب (٣) » وقبل هذا كله ما شعر به في الوسط الثقافي إذاك من تنكر وجحود ، وما تنطوي عليه نفوس أكثر العلماء من حسد ، وما يظهرونه من عدم مبالاة بكل ما هو مغربي ، ولقد أشار إلى

---

(١) انظر آخر الحاشية نسخة مخطوطة ضمن مجموعة رقم ٢١٠٣ بخزينة جامع الزيتونة ، وسياتي الحديث عليها .

(٢) من مقدمة فتح المتعال .

(٣) انظر تراجم إسلامية ص ٢٤٩

هذا في كتابه فتح المتعال بعد ما ذكر رسائل كثيرة ، وردت عليه من المغرب ، وأشاد بأصحابها « . . أن أهل المشرق . . غير محققين فضيلة المصريين من أهل المغرب » وتدل على هذا الشعور حوادث كثيرة كتلك التي أشار إليها ، وقد جمعه ناد في القاهرة ببعض العلماء ، وأدى بهم الحديث إلى الكلام على النعل النبوي ، فإذا بأبي العباس يعلن أنه يحفظ في الموضوع أكثر من مائة قافية ، وتلك القصة التي رواها أبو علي اليوسي المراكشي (ت س ١١٠٢ هـ) في محاضراته (١) عن شيخه أبي عبدالله الدلائي.

ورغم هذه النفرة من المصريين ، فإن أبا العباس تبوّأ مكانة علمية مرموقة في القاهرة ، وتولى التدريس بالأزهر . والحسد المشار إليه ، لم يغز في الحقيقة قلوبَ جميع العلماء إذاك . فنحن نجد قاضي القاهرة عبد الكريم الغنيمي يقول « واستبشرنا من أنفاس معارفه بعود دروس قد درست . . . فدعونا الله تعالى بأن يديم إقامته بهذه الديار نفعا للطلبة . بل وللعلماء الأبرار (٢) »

وفي القاهرة تزوج المقري من عائلة تمتع بحظوة وجاه . من اتصلت أسبابه بها ، فقد نال شرفا عظيما في نظر الناس إذاك ، ولكن هذا الزواج ، لم يكن موفّقا ، وهذه المصاهرة لم تعد بخير على المقري ، فتضاعفت متاعبه وزاد قلقه ، ويبدو أنه صعب عليه الفراق لما يرى فيه الناس من كفران بالنعمة وجحود للشرف الذي أحرز عليه بالمصاهرة ، فصبر وتصبّر ، ولكن سبب

(١) راجع المحاضرات ص ٥٧ ط فاس س ١٣١٧ هـ

(٢) راجع رسالته في آخر فتح المتعال مخطوطة الصادقية رقم ٩٧٥

القلق – فيما يبدو – له أثر لا يمكن تغافله . واهتزت القاهرة في يوم من الأيام لخبر « تطليق » الشيخ المغربي للوفائية ، ونُظر لأبي العباس نظرة احتقار ، وبلغ الأمر إلى درجة أنه لم يبق في القاهرة من يسلم عليه إلا رجل حداد كما أخبر طلبته بالقرويين . والذي شجع المقري على الطلاق فيما يظهر موت ابنته التي كانت السبب الوحيد الذي يصل بينه ، وبين الوفائية .

والذي دلنا على أن ابنته توفيت قبل الطلاق ، هو رسالة ابن شاهين المؤرخة بيوم السبت غرة جمادى الأولى سنة ١٠٣٨ هـ والتي يقول فيها « وأما المخدّرة الصغيرة ، فالمصيبة بها كبيرة ، إذ العمومة مقريّة ، والخؤولة وفائية ، فهي ذات النجارين ، وحائزة الفخارين (١) »

ووجد أعداء المقري في هذا الطلاق فرصة للطعن ، وظهرت الغيرة في مظهر اللوم ، ولؤم جاحد الفضل . وهكذا استحالت القاهرة بؤرة نفاق وكيد في نظر المقري ، مع انطفاء شعلة الفكر ، وتطاول الأقزام (٢) فإذا هو ينشد في ألم ، وحسرةِ مَن خاب أمله العريض :

تركتُ رسومَ عزّي في بلادي * وصرت بمصر منسيّ الرسوم
ورضت النفس بالتجريد زهداً * وقلت لها عن العلياء صومي
مخافةَ أَن أرى بالحرص ممن * يكون زمانُه أَحَدَ الخصوم

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٤

(٢) انظر ما علل به شهاب الدين الخفاجي رحلة المقري من مصر إلى الشام في كتابه ريحانة الالبا . . ص ٢٨٥ ط مصر س ١٣٠٦ هـ

حنينه إلى وطنه :

إن من الأمل لشقوةً إذا محقته خيبة كان لها في النفس شدةُ وقع ، وعمق أثر . وذلك ما شعر به المقري في المشرق ، فهو حين كان في فاس مهما يظن أن المشرق ضعف أمره ، وقل نشاطه ، وتدهورت ثقافته ، فإنه لا يستطيع أن يتصوّر ما وجده . ونظرة المغربي للمشرق على أنه مصدر الإشعاع والإنقاض قديمة ، قدم الإسلام في شمال افريقيا .

إذن فقد خاب أمل أبي العباس . ظن أنه سيجد سوقا نافقة للأدب والعلم ، فإذا به أمام كساد قاتل ، ونفوس مريضة ؛ وظن أنه سيطلع على ثروة عظيمة من الكتب النفيسة ، فإذا به أمام جدب في الكتب وأهلها ، فيتذكر مدينة فاس ، وحلقاتها ، ومكتباتها ، ومجالس الأدب فيها ، فيحن ، ويشتدّ حنينه ، وينوي العودة ، ولكنه لا يستطيع إليها سبيلا ، فيزداد شوقه إلى مرتع الصبا ، وبلد الأهل والأصدقاء ، وتمر به تلك الذكريات الجميلة في تلمسان ، وفي فاس ، فيقول « ولم أزل بعد انفصالي عن الغرب بقصد الشرق ، واتصالي في أثر ذلك الجمع بالفرق :

أَحنّ إذا خلوت إلى زمان * تقضّى لي بأفنية الربوع
وأَذكر طيبَ أَيام توالَت * لنا فتفيض من أَسف دموعي

وأَتوق وقد اتسع من البعد الخرقُ ، وخصوصا إذا شدا صادح ، أَو أَومض برق إلى ديار لا يعدوها اختيار »

والمقري رغم ما فيه فاس من اضطراب وفتنة ، وما اتهم به فيها، فإننا نجده يقرر الرجوع إلى الوطن (١) وإن خرج منه مضطرا ، وناقما . . . وما ذلك إلاّ لخيبة أَمله في المشرق ، والصدمة النفسية التي تعرض لها بعد انقطاع رجائـه منه ، وقد كان عظيما . ولما دخل دمشق ، وجد فيها تعويضا لشيء من أَمله المنهار ، فإذا حنينه لبلاده يضعف إلحاحُه ، ويخفت صوته .

ولذلك نراه حين شعر بِبُعْد العودة ، وبلغ إليه خبر وفاة أُمه (٢) ، وانقطعت أَسبابه من القاهرة بموت ابنته ، وفراق أُمها ، يعزم على الرحيل إلى دمشق ؛ ليستقر بها ، ولكنّ الموت حال بينه ، وبين تحقيق العزم .

وفاته :

توفي أَبو العباس بالقاهرة في جمادى الآخرة (٣) سنة ١٠٤١ هـ (٤) ودفن صبيحة يوم السبت في مقبرة المجاورين (٥) وجاء في « تعريف الخلف »

(١) انظر رسالة قاضي القاهرة عبد الكريم الغنيمي في آخر فتح المتعال مخطوطة الصادقية التي يقول فيها « غير اني فهمت من حاله الشريف ، أنه قوض للسفر الخيام ، سوقا للوطن »

(٢) انظر رسالة تعزية ، وردت إليه من ابن شاهين . نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٤

(٣) في اليواقيت الثمينة جمادى الاولى .

(٤) في سلافة العصر لابن معصوم س ١٠٤٦ هـ وفي ذيل كشف الظنون لاسماعيل باشا البغدادي ج ٢ ص ٢٣٦ أنه توفي س ١٠٤٣ هـ ويبدو أن رواية ١٠٤١هـ هي الصحيحة .

(٥) هي إحدى المقابر الواقعة شرقي القاهرة ، وقد اندثرت الان . انظر « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لابن تغري بردي ج ٩ ص ١٨٧ ط دار الكتب المصرية س ١٩٤٢

أنــه مات مسموما بالشام . وهكذا ضمت القاهرة جسد المقري رغم نفوره منها ، وعزمه على مغادرتها .

رحم الله المقري قد رما أمتعنا بنفح طيبه ، وأزهار رياضه .

ضبط نسبته :

إن تعثّر الألسن في النطق بهذه الكلمة ، دفع إلى إفرادها بالتأليف ، وإذا كان في هذا طرافة عند بعض الناس ، فإنه عند آخرين ضرب من ضروب الاعتناء العديم الجدوى ، لو لا ما تعود به القدماء من الاستطراد المفيد أحايين .

أجل لقد ألف أبو عبد الله محمد الصغير الوفراني صاحب نزهة الحادي كتابا سماه « الوشي العبقري في ضبط لفظة المقري » وهـذا الكتاب لم يطبع ، ولكن يظهر أنه معروف بالمغرب الأقصى (١) تحدث مؤلفه فيه عن صاحب نفح الطيب قليلا ، وبحث في ضبط لفظة المقـري . وهـذه النسبة يصح فيها وجهان في النطق .

الوجه الأول فتح الميم وسكون القاف وكسر الراء ، وهذا مذهب أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق المعروف بالحفيد الذي ألف كتابا سمّاه « النور البذري ، في التعريف بالفقيه المقْري » بناء على مذهبه الذي صرح به في شرحه على الألفية عند قول ابن مالك « ووضعوا لبعض الأجناس علم »

(١) انظر دليل مؤرخ المغرب الاقصى ص ٢٨٠ ط تطوان س ١٩٥٠

وقد تحدث في كتابه هذا عن أبي عبد الله المقري جد صاحب النفح (١) وضبطه أيضا بسكون القاف ابن الأحمر في فهرسته .

والوجه الثاني فتح الميم والقاف مع تشديده ، وكسر الراء . وهذا هو المرجح ، وهو مذهب الشيخ عبد الرحمن الثعالبي ، الذي ضبط به اللفظة في كتابه العلوم الفاخرة (٢) وهو مذهب أبي العباس أحمد الوَنْشَريسي (ت س ٩١٤ هـ) صاحب كتاب المعيار المشهور ، وقد ألف الونشريسي كتابا في ترجمة أبي عبد الله المقري ، وهو مخطوط لم يطبع ، يقع في مجلد (٣) وهذا الوجه هو الذي اشتهر في أيام الزَّبيدي (٤) وعول عليه أكثر المتأخرين منهم المحبّي . والوجهان نسبة إلى مدينة مقّرة بالزاب ، ولكن يا قوت لم يذكر في هذه المدينة إلاّ فتح الميم ، وسكون القاف فقط (٥) ونحن إذا رجعنا إلى أبي العباس نفسه ، فإننا نجده يقرأ نسبته بتشديد القاف ، فهو يقول مثلا في مقدمة أزهار الرياض :

فيقول أحمد ذو القصو * ر المقّري إذا انتسب

وكذلك الذين عاصروه ، فإنهم ينطقون بالتشديد .

---

(١) انظر نفح الطيب ج ٣ ص ١١٠ الطبعة الازهرية .

(٢) راجع « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ص ٢٤٩ ط مصر س ١٣٢٩ هـ

(٣) انظر الدليل ص ٢١٩ وقد ذكر هذا التأليف أحمد المقري في النفح ج ٣ ص ١٧٧ مط بولاق ، وذكر هناك أيضا أنه كان يملك بالمغرب كتابا اسمه « الزهر الباسم » بخط مؤلفه ، ترجم فيه صاحبه لجده أبي عبد الله المقري .

(٤) تاج العروس ج ٣ ص ٥٤٨

(٥) راجع معجم البلدان ج ٨ ص ١٢٥ ط مصر س ١٩٠٦

القسم الثاني

شخصيته العلمية

مكوناتها :

إذا كانت للعبقرية عوامل فطريّة ، يوجد العبقري ، ومعه هذه العوامل ، فإن أثرها ، وتقديرها ، يرتبطان أشد الارتباط بعصر العبقري ، وبيئته . وليس واجبا شذوذه عنها ، وعدم تأثره بها ، وإن كنا لا نفهم من هذا ألاّ تكون له مِيزة ، يسمو بها عما حوله ، ويتألق نجمه بسببها ، وقد غارت بقية النجوم ، أو تكاد .

وهذا ما دفع بي إلى الحديث في شيء غير قليل من الإسهاب عن عصر المقري ، وعن حياته الخاصة ، والتعمق فيها ، ومحاولة تعليل بعض الظواهر التي تبدو من حين لآخر في وضوح قليل مرة ، وفي غموض شديد مرة أخرى ؛ لما تمتاز به نفسية المقري ، وإن شئت قلت أهل المغرب عامة من الاحتراز والارتياب .

تبين بعد دراسة عصره ، ومعرفة حياته أن شخصيّة المقري العلمية ، كانت قوية في عصره ، ينظر إليها المعاصرون نظرة تقدير وكمال ، سيما في المشرق الذي وجد في أبي العباس سعة الاطلاع ، وسحر البيان ، وقوّة الحافظة .

أما شخصيته التي تلوح لنا من خلال آثاره ، فإنها تتجلى في اطلاعه على مصادر كثيرة فيها القيّم ، سيما مصادر الأدب المغربي ، والحضارة الأندلسية التي لم يعثر على أكثرها إلى الآن . وكان اطلاعه عليها بالمغرب ، وبمكتبة أبي المعالي زيدان خاصة . وهذا ما أكسبه تقديرا فائقا في المشرق — بالخصوص — الذي فقد ثروته الفكرية ، وهو أيضا لا يعلم من أمر المغرب كثيرا ، وما يزال . . . وتتجلى شخصية أبي العباس أيضا في قوة حافظته التي كان يتفوق بها منذ صباه قال « وكنت في حال الصغر أحفظ كثيراً بالنسبة إلى أقراني فحدثني مولاي العم . . . سعيد بن أحمد المقري أن بعض شيوخه من أهل تلمسان ، كان يطالع الكراس الكبير بسرعة ، فيحفظ ما فيه من وقته من غير تأمل ، ولا بطء البتة ، فانكسرت نفسي (١) » ومن عناصر شخصيته التي تشعر بها بداءة ، قوّة بيانه ، وسلامة لغته ، سيما في عصر ، قد أصبح البيان فيه ضربا من ضروب رصف الألفاظ الذي خرج عن حد التكلف المرهق إلى انعدام الحيوية انعداما تاما .

ولقد لفت حفظ الشيخ المغربي هذا نظر المشارقة .

درس غريب كل يوم له * يملي ، ولكن حفظه أغرب (٢)

---

(١) ص ٢١٣ من فتح المتعال نسخة الصادقية .

(٢) من قصيدة قالها عبد الرحمن العمادي في المقري . انظر نفح الطيب ج ٣ ص ١٦٨

ولكن ما أشدّ حفظ المغاربة ، وما أضعف ملكة التصرف فيهم (١) وهذا ما تجلى في المقري أيضا كما سنرى .

إذن فعبقرية المقري ، لم تتجاوز الحفظ ، والدأب في التنقيب عن الكتب ، واستيعاب ما فيها ، ولولا ما في نفح الطيب من شذور ونقول ، تعزّ في غيره ؛ وما في أزهار الرياض من تعريف بالحركة العلمية في المغرب لكان المقري مثقفا عاديا ، بينه وبين خلود اسمه ، جمود عصره ، وضعف تفكيره ، وانغماسه في مظاهر التأخر والانحطاط التي كانت تسبح فيها بيئته ، وكان يشيد ببعضها أحيانا . ومن هنا كان أبو العباس قريبا من عصره أشد القرب ، يمثله في أكثر المظاهر أحسن تمثيل .

وليس هذا مغالاة ، وإنما هي الحقيقة يدركها المتجرد ، ومن وعى فقرات ترد خلال كتبه ، سيما الغير المشهور منها . ومن يدرك ينصف .

طريقته في التأليف :

يبدو من خلال كتب أبي العباس أحمد المقري ، أنه رجل قوي الحافظة ، واسع الاطلاع ، لا يعرف السأم إليه سبيلا ، فهو إذا قصد الكلام في موضوع معين ، فإن ذاكرته تأبى عليه الوقوف عند حدوده ، بل لا بدّ أن يتناول موضوعات أخرى ، تمس من قريب ، وربما من بعيد الموضوع المراد ، ولعله يرى من التقصير ألاّ يطلق العنان لقلمه ، وأن يُبقي

(٣) راجع ما قاله ابن خلدون في هذه الاشارة في مقدمته ص ٣٧٧ المطبعة البهية.

شيئا مما حفظ ، سيما وهو يرى في ذلك التنقّل ترويحاً للقارئ ، وإعانة للنفس الملول على المواصلة (١)

ومن هنا كثر الاستطراد في تأليفه ، حتى عدّه بعض الأدباء « حافظ المغرب جاحظ البيان (٢) » فهو وإن قلّد لسان الدين بن الخطيب في كتابته، كما سيأتي إلاّ أنه يمتاز عليه بهذه الظاهرة التي تصله بأبي عثمان ، ولكن إذا تأملنا في استطرادات المقري ، نجد أكثرها نقولاً تتكرر أحايين تكراراً يؤيد ما أشرتُ إليه سابقاً من أَن المقري يتحكم فيه قلمه ، ويؤمن بضرورة كتابة كل ما يحفظ في الموضوع الذي يتكلّم فيه ، سيما وقد ألف غالب كتبه في المشرق حيث لم تكن لديه المصادر التي كان اطلع عليها بالمغرب ؛ والتي تكون له مادّة ثرة في تآليفه ، لو كانت في متناوله، أَما وقد حُرم منها؛ فلا أَقل من ذكر ما أسعفته به حافظته الجبارة .

وهذه الشذور التي ينقلها لنا المقري دون تمحيص ، أَو تحقيق ، كما أَشار إلى ذلك بنفسه (٣) فهي ، وإنْ أفقدت كتبه وَحدة الموضوع ، وتركيز البحث ، فإنها أَفادتنا فائدة عظيمة ؛ لأنها تشمل رسائل هامة تؤرخ لنا ناحية من نواحي الحياة إذاك ؛ ووثائق تاريخية ذات قيمة ؛ وتشمل أَيضا نقولا مطولة عن كتب مفقودة الآن ، كانت موجودة بالمغرب حينما كان المقري هناك ، ولكن شغفه هذا بالاستطراد ، يجعله أَحيانا ينسى الموضوع

(١) انظر نفح الطيب ج ١ ص ١٢١
(٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢
(٣) راجع النفح ج ١ ص ٢٧١

المقصود ، فيتركه ناقصا ، ويتجه إلى موضوعات أخرى تتصل به ، وعند ما يشعر بأن سفره ، قد شحط ، ينبئنا برجوعه بعد ما يذكرنا بأن « الحديث ذو شجون » وقدلا يعود ، وهو واع لطريقته هذه ، ويرى فيها تسهيلا للقارئ ، فاستمع إليه يقول « وكثيراً ما خرجت من الشيء إلى ما يناسبه ويدانيه ، وربما أبعدت النُّجْعَة (١) ، ثم وقعت الأوبة والرجعة ، على رغم أنف قالي ذلك وشانيه ، وقرّبتُ بذلك كله شاسعاً ، كي تسهل مؤنتُه على مُعانيه (٢) » ويخبرنا أيضا أنه متبع في طريقته تلك ، لجماعة من الأئمة في مصنفاتهم ، وحلقات دروسهم التي كانت تغذو العقل والوجدان ، أيام كان يُحسَب للعقل والوجدان حسابٌ في الثقافة الإسلاميّة ، وينقل قول أبي حنيفة : الحكايات عن العلماء ، أحبّ إليّ من كثير من الفقه ؛ لأنها آداب القوْم .

مؤلفاته :

كان المقري شغوفا بالتأليف ، يحن إلى القلم حنين الولهان لمناجاة أليفه . فها هو ذا يجلس تجاه رأس الرسول عليه الصلاة والسلام ، يكتب من وقت الضحى إلى الظهر ؛ ليخرج لنا كتابا على الصفة التي رغبها في خمسة عشر يوما ؛ وها هو ذا يمسك بالقلم تحت سماء القاهرة ، يداعب نسيمُ النيل

(١) يقال : نجع القوم الكلا : ذهبوا لطلبه في أماكنه ، ومنه النجعة : السفر لطلب الكلا ، وهي اسم من النجوع .

(٢) أزهار الرياض ج ١ ص ١٥

لحيته المغربيّة التي بدأ يغزوها الشيب ؛ ليؤلف لنا معلمة تاريخية ، وأدبية في أخبار فردوس مفقود في أقل من عامين ، رغم أَلم الغربة ، ومتاعب العيْش .

وحب المقري للكتابة مع حفظه العجيب ، هو الذي مكنه من تأليف عشرات الكتب رغم قصر حياته ، فهو يقول في إحدى الإجازات قبل شروعه في تأليف النفح :

ولي تـآليف على العشرينا * زادت ثمانيا حوت تعنينا (١)

وهذه التآليف العديدة مختلفة القيمة ، فمنها القيم ؛ ومنها المفيد في بابه ؛ ومنها العديم الجدْوى إن شئت . تُرى ما الجديد في « إضاءة الدجنة . . . » وما شعور القارىء لكتاب « الجمان في أخبار الزمان » إن ثبت أنه له ، سوى التأسّف على الوقت الذي قضاه في الإتيان عليه . أما « فتح المتعال . . » فإن طرافة الموضوع ، وندور التأليف فيه ، يضفيان عليه شيئا من حرمة الباحثين ويضفي عليه شيئا كثيراً من التقديس ، حنينُ المسلم لكل ما يتعلق بأخبار الرسول عليه الصلاة والسلام . وإذا تجاوزنا هذه الكتب المتفاوتة في قيمتها إلى نفح الطيب ، وأزهار الرياض ، فسنجد شخصية المقري قوية ، وينبوعه غزير المياه ، عذبها غالبا .

هـذا ما أرى قوله في كتب أبي العباس التي وصلتنا ، أمـا أن نقول ، كما قال الشيخ محمد محي الدين عبد الحميـد « صنف المقري كتبـا كثيرة

---

(١) نفح الطيب ج ٣ ص ١٩٨

كلها ممتع ، وكلها مفيد أعظم الفائدة (١) » فإننا نكون قد افترينا على التاريخ ، وقلنا خلاف ما نعتقد ، والموجود . وسأتحدث عن مؤلفات المقري في شيء غير قليل من الإسهاب ؛ لأنها لم تمحص سابقا ؛ وللأخطاء التي وقعت فيها بعض المصادر .

نفـــــح الطيب

أ ـ قيمته في التعريف بالاندلس :

حقا إن فكرة تأليف نفح الطيب أصلها رغبة ملحة في ترجمة رجل واحد ، هو ابن الخطيب ، ولكن المقري أراد بعد ذلك ـ كما سيأتي ـ أن يتوسع في الحديث عن الأندلس . إذن فهو لم يقصر كتابه الضخم على أخبار مترجمه ، حتى نعد ذلك إسرافا منه ، كما وصفه بذلك بعض الأدباء (٢) ، ولكنه جعل صاحب الترجمة مركزاً لدائرة معارف تاريخية ، وأدبية ، وعلمية ، وبهذا كان نفح الطيب أوفى المصادر العربية عن تاريخ الأندلس وآدابها . واستمع لرجل لعله الوحيد من المحدثين الذين انتقدوا بشدة صاحب النفح يقول « اعلم أعزك الله ، أنه لا يزال نفح الطيب من أعظم المراجع التي يعوّل عليها المحققون في أخبار الأندلس برغم كل ما عليه من مآخذ ومغامز ، وما

(١) ص ٥ من مقدمة نفح الطيب .

(١) انظر ص ١٨٨ من « اعجام الاعلام » ط مصر س ١٩٣٥

فاته من مباحث ومسائل ، وذلك لأن صاحبه اتصل بكتب كثيرة لم يتيسّر لغيره الاطلاع عليها ، وشافه في الشرق والغرب عدداً كبيراً من الجلّة ، وحاضرهم (١) »

فنفح الطيب ، وإن كان كتاب أدب قبل أن يكون كتاب تاريخ إلاّ أن أخْذ المؤلف عما يربو عن مائة كتاب أهمها مفقود ، والمعلومات التي ترد خلال حديثه حيث لا يتوقع ورودها ؛ لعدم اعتنائه بالتنظيم والتنسيق ، جعلا كتابه غنيّا ، وافر المادة في حياة الأندلسيين وإذا كان المقري لم يفصل لنا الوقائع الشداد ، والمعارك التي دارت في دور النزع الأخير ، كما قال شكيب أرسلان (٢) ؛ فلأن الكتاب الذي ينقل عنه كان مختصراً (٣) ؛ ولأنه يتعرض لذلك في مناسبات مختلفة كعادته ، فهو مثلا في أزهار الرياض، ينقل رسالة لمجهول يبدو أنه من معاصري سقوط غرناطة ، يتحدث فيها عن نقض ملك قشتالة لعهوده إزاء المسلمين ، وما فرضته محاكم التفتيش على المخالفين ، وقصيدة لأبي العباس أحمد الدقون أحد علماء المغرب في القرن التاسع عنوانها « الموعظة الغراء بأخذ الحمراء » يرثي فيها الأندلس ، وينقل

(١) الحلل السندسية ١ ـ ١٥١ لشكيب ارسلان .

(٢) انظر « مختصر تاريخ الاندلس » الذي ذيل به ترجمة رواية « آخر بني سراج » لشاتوبريان ط مصر س ١٩٢٥

(٣) اهم مصدر اعتمد عليه المقري في اخبار الدور الاخير من حكم المسلمين باسبانيا هو كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » المجهول المؤلف الذي نشره في مونيخ س ١٨٦٣ م المستشرق الالماني ملر (١٨٣٢ ـ ١٨٩٨م) مقرونا بترجمة المانية ، ونشره ايضا شكيب ارسلان عن النسخة الاوروبية مع « آخر بني سراج » س ١٩٢٥ ولقد تم تأليف هذا الكتاب س ٩٤٧ هـ .

لنا أيضاً رسالة كتبها أندلسي متنصر إلى بايزيد الثاني التركي ، يستغيث به ، ويصف ما يصيب العرب المتنصرين من ديوان التحقيق (١) . ولعل أمير البيان آخذ المقري حين كان يؤمن بوجود كتب في شمال افريقيا تعرضت لنهاية الأندلس ، أما بعد أن بيّن الواقع خلاف ذلك ، فإننا نستطيع أن نقول : ليس بعيداً أن يكون قول الأستاذ ليفي بروفنسال « إن نفح الطيب هو الوثيقة الوحيدة التي في أيدينا عن حادثة خروج العرب النهائي من اسبانيا » صحيحاً. والذي زاد في قوّة شخصية المقري في النفح، هو حرارته في الكتابة عن تاريخ الأندلس ، ومجد المسلمين بها ، فهو زيادة عن الألم الذي يشعر به حين يتذكر المصير الأليم لوزير الحمراء ابن الخطيب ، ذلك المصير الذي كان مقدمة كتبها المسلمون أنفسهم لصفحات مادتها الفجائع والأهوال، ومدادها الدموع والدماء، فإنه شاهد بنفسه أذيال المأساة .

أجل لقد وقع عند ما كان المقري بفاس س ١٠١٧ هـ حادث أذكى الذكريات الشاجية ، هو نفي « الموريسكيين (٢) » أو العرب المتنصرين من

(١) راجع أزهار الرياض ج ١ ص ٦٩ — ١٠٤ — ١٠٨

(٢) انظر تفصيل هذا الجلاء في كتاب « نهاية الاندلس » للاستاذ عبد الله عنان ص ٢٢٤ ط القاهرة س ١٩٣٩ وفي مقال كتبه فضيلة الشيخ الطلعة محمد الطاهر ابن عاشور بعنوان « مصير الاندلسيين » نشر ضمن نشرية الخلدونية س ١٩٣١ ونشر أيضا في حاضر العالم الاسلامي ج ٢ ص ٥٩ وقد نبهنا الشيخ في مقاله إلى وجود كتاب قيم هو « نور الارماش في مناقب سيدي أبي الغيث القشاش » للمنتصر القفصي مخطوط بخزينة جامع الزيتونة رقم ٣٨٨٣ وهو يفيد من يريد دراسة المجتمع التونسي إذاك ، وهذه ميزة كتب المناقب ، سيما وكتب التاريخ الاسلامي لا تتعرض لجميع نواحي الحياة .

اسبانيا ، وشاهد الجموع الغفيرة تفد على المغـرب ، وترجع إلى الإسلام ، وهي في ضنك شديـد ، ومظهر مؤلم ، ترك هـذا المظهـر في نفسه آثاراً عميقة ، ودفعه إلى زيادة التنقيب عن تاريـخ الأنـدلس المليئ بالنشـوة ، نشوةِ السرور ، ونشوة الألم . وما أدراك ما نشوة الألم ! !

ب ـ وبعد ظهور « المغرب » :

قد أشرتُ إلى أن نقل المقري عن كتب مفقودة ، أكسب كتابه قيمة خاصة .

وإذن فكلما عُثر على كتاب يؤرخ لنا الأندلس من الكتب التي كنا نحسبها انعدمت ، وينقل عنها المقري ، تنقص هذه القيمة شيئـا ما ، ولكن هل تنقص بهذه الصورة التي يحدثنا عنها الدكتور شـوقي ضيف في تقديمه لكتاب « المُغْرِب في حُلَى المَغْرب » حين يقـول ص ١٩ « . . . فكذلك ما نقرأه في نفح الطيب من أشعار أندلسية ، هو الآخـر إيجاز وتلخيص لما كتبه مؤلفو المغرب عن شعراء الأندلس . وبمجرد أن يخرج هذا النص للباحثين ، سيرون رأي العين أن نفح الطيب إذا استثنينا مقدمة المقري عن رحلته إلى المشرق ، وبعض من ترجم لهم ممن حجوا البيت الحرام ، وما كتبه في خاتمته عن إخراج المسلمين من الأندلس ليس إلاّ نقولاً عن المغرب . وأخذ المقري هذه النقول دون أن يعين مصدرَها من المغرب في الكثير الأعم منها . حقاً إنـه سمّى علي بن سعيد عشـرات المرات ،

ولكنه حاول في أغلب الأحوال أن يضلّل القارئ، فنقل عنه دون أن يسميه مراراً وتكراراً، وأحيانا كان ينقل عنه، ويزعم أنه ينقل عن الحِجاري في «المُسهب» ونحن نعرف الآن أن «المسهب» تسلّمه عبد الملك بن سعيد، ولم يخرج إلى الناس إلاّ في هذه الصورة الجديدة من المغرب التي أعطاها شكلها النهائي علي بن موسى بن سعيد، وعلى شاكلة ما صنع المقري بالحجاري صنع ببقية المصنفين الذين منهم مؤلفو المغرب، من مثل الرازي، وابن حزم، وابن حيّان، وابن غالب، والشَّقُنْدي، وغيرهم ممن يزخرف بهم كتابه» ويقول ص ٢٠ «وما أشبه المقري في ذلك بشخص عمد إلى نسيج متصل ملتحم، ففصل بين خيوطه، بل قل نقضها أنكاثا من بعد قوّة» ويقول ص ٢٧ «بحيث يعد النفح في أكثر جوانبه نسخة ثانية مشوّشة لهذا النص».

يبدو أن الدكتور أَسرف كثيراً، وأَنسته نشوة الظفر بالمغرب، وتحقيقه له الاقتصاد في القول، والرّيْث في الحكم.

حقا إن المقري ينقل بكثرة عن المغرب؛ وحقا إن لظهور المغرب تأثيراً على قيمة النفح الأدبية، ولكنّ في النفح ـ زيادة على ما استثناه الدكتور ـ نقولاً أُخرى هامة عن كتب مفقودة، ككتب ابن حيّان مثلا، كما أننا نجد فيه شيئا كثيراً من أَخبار القرون الأخيرة أَي من وقت إتمام علي بن موسى بن سعيد للمغرب، إلى انتهاء المؤلف من النفح الانتهاء الأخير، ولا سيما تصويره لعقلية العلماء في القرون الأخيرة، وإطلاعنا على

طريقة جدلهم وبحثهم ، بتلك المسائل العلمية التي يسوقها من حين لآخر ، وما يجده القارىء في استطرادات أبي العباس من معلومات عن المغرب ، وتعريفه برجال أخبارهم في غيره كمخ البعوض . وهل صحيح قول الدكتور أن المقري « حاول في أغلب الأحوال : أن يضلل القارىء » هذا ما أشك فيه كل الشك ، كما أني أستغرب صدور هذا القول من رجل قد يعدّ من المختصين في الأدب الأندلسي ، فهو إذن قد قرأ النفح ، أو قل درسه دراسة الباحث المنقّب . ومن يقرا النفح يجد فيه أن صاحبه ألفه وهو ـ نضو أسفار خال من الأسفار ـ على حدّ تعبير أمير البيان ؛ وهو أيضا في ضيق مادي ومعنوي مما أدى به ذلك إلى الانقطاع عن التأليف ، لولا إلحاح صديق عزيز ، كما سيأتي . والمؤلف نفسه يعلمنا بعدم رضاه عن تأليفه (١) .
ومن هنا نستطيع أن نؤكّد أن المقري لم يدر بخلده أن يضلّل القارىء ، وانما هو الاضطراب ، وحيرة البال ، وازدحام المحفوظات ، والاعتماد على الذاكرة ، فمرة يتيقّن ، فينسب ؛ ومرة يشك ، فلا يذكر المصدر ، أما أنه يريد تضليل القارىء ، فذلك ما أراه بعيداً عن نفسية أبي العباس ، وإنما هي سرعة من الدكتور في الحكم ، أربأ بباحث صبور مثله عنها .

ج ـ ظروف تأليفه :

تُرى لو بقي المقري في المغرب . هل يؤلف معلمته ؟ قد يكون ذلك

(١) راجع النفح ج ١ ص ١٠٩ ـ ١١٨

ولكن من يدري ؟ لعل في تخيّل سعيد العريان شيئا من الصحة ، إذ يقول « ليت شعري أيكون في المشرق بقية من السحر الفرعوني ، أو من السحر البابلي، تنفخ في الأجساد الهامدة والمسبوتة روحا ونشاطا ، فتردّها من همودها وسباتها إلى الحياة والحركة ، فإذا هي ساعية واعية ، ناشطة نشاط الأحياء (١) » قد تقول حتى الشرق إذاك في سبات عميق ، فظل الأتراك الثقيل ، فيّأ العالم العربي كله . ومهما يكن الحدس قريبا أو بعيدا ، فإن الواقع ينبئنا بأن المشرق ألح على المقري بأن يجلو فضل المغرب .

أجل . ها هو ذا أبو العباس، يتحدّث على ضفاف بردى مع جماعة من أدباء الشام ، فيفضي به الحديث « والحديث ذو شجون » كما يحلو له أن يكرر ذلك ، إلى ذكر شاعر الحمراء ، وصاحب القلم الأعلى في غرناطة ، الفاتنة ، اليتيمة ، المتناحر على حسنها . . . فإذا ينبوعه ينساب في غزارة وصفاء ، وإذا هو يسرد في ذلاقة « من كلام وزيرها لسان الدين بن الخطيب السلماني ، صب الله عليه شآبيب رحماه ، وبلغه من رضوانه الأماني ، ما تثيره المناسبة وتقتضيه ، وتميل إليه الطباع السليمة وترتضيه ، من النظم الجزل، في الجد والهزل ، والإنشاء ، الذي يدهش به ذكر الألباب إن شاء ، وتصرّفه في فنون البلاغة حاليْ الولاية والعزل ، إذ هو ـ أعني لسان الدين ـ فارس النظم والنثر في ذلك العصر ، وكيف لا ونظمه لم تستول على مثله أيدي الهصر ، ونثره تزري صورته بالخريدة

(١) من تقديم الاستاذ سعيد العريان لكتاب « وزير غرناطة » تاليف عبد الهادي ابي طالب المغربي.

و« دمية القصر »(١) فلما تكرر ذلك غير مرّة على أسماعهم، لهجوا به دون غيره، حتى صار كأنه كلمة إجماعهم . . . فطلب مني المولى أحمد الشاهيني إذاك، وهو الماجد المذكور، ذو السعي المشكور، أن أتصدّى للتعريف بلسان الدين في مصنف، يعرب عن بعض أحواله، وأنبائه، وبدائعه وصنائعه ووقائعه، مع ملوك عصره وعلمائه وأحبائه ومفاخره التي قلّد بها جيد الزمان ولَبّته، ومآثره التي أرج بها مسرى الشمال وهبّته، وبعض ماله من النثار والنظام، والمؤلفات الكبار العظام (٢)» ولكن المقري، يتذكر عدم الاستقرار الذي لا يسهل معه إنتاج، ويتذكر أن المصادر التي يحتاج إليها تركها في المغرب « وأكثرها في المشرق كعنقاء مُغرب » ويشعر بالغربة، ومفارقة الأهل والأحباب؛ فيرفض طلب صديقه، ولكن هذا ما زال يلح، حتى أجابه أبو العباس لطلبه، وفارق دمشق؛ ليتجه إلى مصر، ولو كانت في هذه مشاكل الأسرة، ومرض النفوس، وفي تلك حلقات العلم والأدب التي تذهب القلق الجاثم، ولو إلى حين، ولكن المقري مضطر للذهاب إلى القاهرة

(١) هما كتابان . الاول عنوانه « خريدة القصر وجريدة العصر » لعماد الدين الاصفهاني المتوفى س ٥٩٧ هـ وقد ذيل به الكتاب الثاني المسمي « دمية القصر وعصرة أهل العصر » لابي الحسن الباخرزي المتوفى س ٤٦١ هـ وقد ذيل الباخرزي بدميته « يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر » التي ذيل بها الثعالبي « البارع في شعراء المولدين » لهرون المنجم المتوفى س ٢٨٨ هـ وقد ذكرت هذا، لاني أشعر أن كثيراً من القراء، يجديهم ذكر المصادر .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٧٧

لمشا كل زوجية في نظري ، جعل لها حداً بالطلاق حين سنحت فرصة ، وهذا لا ينافي أنه يريد أن يؤلف في القاهرة ؛ لأنه قد يجد فيها مصادر لا يجدها في دمشق (١)، استجاب أبو العباس لطلب صديقه الشاهيني ، وبدأ يكتب في ذي القعدة سنة ١٠٣٧ هـ وإذا هو يؤخر العمل بعد حين، ولكن خطابا من صديقه حدا به للإتمام ، فإذا بصاحب النفح يتم عمله على صورته الأولى عشية يوم الأحد المسفر صباحها عن السابع والعشرين لرمضان س ١٠٣٨ هـ ويخرج لنا كتابا سمّاه « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب » ولكنه رأى بعد ذلك أن يوسّع نطاق الكتاب؛ويتحدّث عن الأندلس طويلا (٢) ، فإذا به يعود إلى الكتابة ، ويطلق لقلمه العنان ، وما هي إلاّ مدّة وجيزة ، تشرف فيها سنة ١٠٣٩ هـ (٣) على النهاية ، حتى يخرج لنا المقري موسوعة تاريخية وأدبية ، خلَدت ، وأَخْلدت ، ولكن ما دام الكتاب اتسع ، فلا بد من تغيير العنوان السابق ؛ ليصير هكذا :

---

(١) قال شكيب أرسلان في الحلل ج ١ ص ١٥٢ « وقد كان تأليف المقري للنفح حينما كان مقيماً بالشام » معتمداً على قول المقري « وله بالشام تعلق من وجوه عديدة الخ » انظر النفح ج ١ ص ١١٧ ولكن الامر الذي لا ريب فيه أن المقري ألف كتابه بالقاهرة من أوله إلى آخره ، كما صرح هو بذلك في مقدمة الكتاب، وفي آخره . انظر النفح ج ١ ص ٨٦ - ج ١٠ ص ٣٦٤ .

(٢) انظر النفح ج ١ ص ١٠٨

(٣) قال شكيب أرسلان في الحلل ج ١ ص ١٥١ « بدأ (أي المقري) بكتابة هذا الكتاب (يعني النفح) س ١٠٣٩ هـ . . . إلا أنه بعد ما بدأ به بدا له أن يتوسع في الموضوع » هذه سهوة ثانية من الاستاذ رحمه الله .

« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب »
« وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب »

وقسم المؤلف كتابه إلى قسمين :

الأول في الحديث عن الأندلس وتاريخها وآدابها ، وفيه ثمانية أبواب:

١ ـ في وصف جزيرة الأندلس ، ومناخها ، وبلدانها .
٢ ـ في فتح العرب للأندلس .
٣ ـ في عز الإسلام بالأندلس .
٤ ـ في ذكر قرطبة ، وجامعها الأموي ، وقصورها البديعة الصنعة .
٥ ـ في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق .
٦ ـ في ذكر بعض الوافدين على الأندلس من أهل المشرق .
٧ ـ في الحديث عما يمتاز به أهل الأندلس من توقد الأذهان ، والسعي وراء المعرفة .
٨ ـ تحدّث فيه كيف تعاون الأوربيون لاغتصاب الفردوس ، وكيف تخاذل العرب ؛ ليزيلوا لهم العوائير .

والقسم الثاني في التعريف بابن الخطيب ، وفيه ثمانية أبواب :

١ ـ في ذكر أوليّة لسان الدين .
٢ ـ في نشأته وترقيه ووزارته ، وسعادته وشقائه .
٣ ـ في ذكر مشائخه .
٤ ـ في مخاطبات الملوك والأكابر له .

٥ ـ في إيراد جملة من نثره ، وأزجاله ، وموشحاته .
٦ ـ في مصنفاته .
٧ ـ في ذكر بعض تلامذته .
٨ ـ في ذكر أولاده .

وكم من طرافة نتف ، وقيمة شذور تحت هذه العناوين ، يذكرها المؤلف ، فيخطها يراعه ، ورغم تصنيفه لهذه الموسوعة النفيسة التي يشعر سميرُها أنه في روضة مختلفة الشذى ، ذات ألوان فيها من الحياة الانسجام والتناقض ، فإنه يقول « . . . وتركت الجميع بالمغرب ، ولم أستصحب معي منه ما يبين عن المقصود ويعرب ، إلاّ نزراً يسيراً علق بحفظي ، وحلّيتُ بجواهره جيد لفظي ، وبعض أوراق سعد في جواب السؤال بها حظي ، ولو حضرني الآن ما خلفته مما جمعت في ذلك الغرض وألفته ، لقرّتْ به عيونٌ ، وسرّتْ ألبابٌ ، إذهو والله الغاية في هذا الباب ، ولكن المرء ابن وقته وساعته (١) » .

ترى ماذا يمكن أن يكون هذا الكتاب ، لو ألفه المقري وبجانبه المصادر التي يحتاج إليها ؟ يستطيع أن يقدر ذلك من عرف نفح الطيب الذي كانت مصادره حافظة إنسان .

د ـ مختصروه :

كان علماء عصر « الشروح والحواشي والمختصرات » رحمهم الله يرون

(١) النفح ج ١ ص ١٠٩

في الاختصار نفعا من جهة ؛ ودفعا لمشقة الإبداع من جهة أُخرى . وما أَغرب كلمة الإبداع في ذلك العصر ! فتراهمَ إذا وجدوا تطويلا قصروه ، حتى قال أَحد الظرفاء، وقد أَبصر رجلًا طويلا ، لو رآه فلان — من العلماء — لاختصره؛وإذا وجدوا قصراً ، طولوه « تحشية » أَو قل حَشْواً في الكثير ولا بأس عليك .

وإذا كنا نحتمل الاختصار على مضض في بعض الكتب ، فإننا نشعر بالتعدّي على المؤلف حين يُختَصر كتاب، مثل كتاب نفح الطيب ؛ لأن الاختصار لا يحقق غاية المؤلف؛ ولا يعرف بثقافته، وتفكيره، ومزاجه ، وإذا كان في الاختصار جديد، فإنما هو المسخ ، والتعقيد اللفظي ، وضياع مجهود فيما لا يُجدي . ترى ما ذا كانت نتيجة ستة عشر عاما قضاها أحد المعاصرين في تهذيب الأغاني سوى بذل مجهود استحق عليه اللوم . قد ترى في هذا قسوة على رجال خدموا الثقافة ، ولكن ثق أَن سبب القسوة ، هو الإشفاق على هذه الثقافة من الحذف والتشويه . وها أَنا ذا أَعرفك بالذين اختصروا نفح الطيب ، وهم يظنون رحمهم الله أَن مختصراتهم ، ستذيع في الناس ، وسوف لا تحتاج إلى تعريف .

اختصر نفح الطيب أَبو الحجّاج يوسف بن محمد الشهير بابن الوكيل الميلوي في كتاب سمّاه « تغريد العندليب على غصن الأندلس الرطيب » رتبه على ثمانية أَبواب وخاتمة عرف فيها بالمؤلف ، وأَضاف إليه بعض الفوائد مما وقف عليه في بعض الكتب ، ولا سيما الذي يتعلق بالمغرب الأقصى ،

واختصره بطلب من أحد الأشراف بمصر ، وهو حسين أفندي بن ابراهيم فرغ من تحريره في ذي الحجة سنة ١١٤٤ هـ ويقع هـذا المختصر في مجلد ضخم توجد منه نسخة بمكتبة محمد الهادي المنوني الحسَني بمكناس .

واختصره أيضا أبو الحسن علي بن أحمد الحُرَيْشي الفاسي المتوفّي بالمدينة المنوّرة سنة ١١٤٤ هـ وتوجد نسخة من هـذا الاختصار بالخزانة الزيدانية بمكناس (١) واختصره كذلك أبو العباس أحمد بن محمد الرهوني التطواني في كتاب سماه « اللؤلؤ المصيب من نفح الطيب » طبع الجزء الأول منه بتطوان سنة ١٣٤٠ هـ ولم يتم طبعه .

واختصره الشيخ أحمد دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ ولم أعثر على المختصر ، أو مكانه ، أو اسمه .

واختصره أيضا الشيخ أحمد الجزائري ، وتوجد نسخة من هـذا المختصر بالمتحف البريطاني (٢) لم أتمكن من معرفة رقمها . ولمّا أطلعني الشيخ المنقّب أحمد الجريدي على مكتبته القيمة ، وجدت بها مجموعا مخطوطا ، يحتوي على مختصر لنفح الطيب فيه ١٧٠ ورقة ، وهو بخط مختصره السيد حمودة بن محمد النوري ، وكان الفراغ منه أواخر رمضان سنة ١٢٧٠ هـ

---

(١) انظر فهرس الفهارس ج ١ ص ٢٥٤ ودليل مؤرخ المغرب الاقصى ص ٢٦٩ .

(٢) راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ج ٣ ص ٢٧٢

هـ ـ طبعاته[1] :

طبع نفح الطيب طبعات عديدة ، متفاوتة في جودة الطبع ، وتحقيق النص ، ولكنه إلى الآن لم يطبع طبعة جيدة ، تقوم على المقارنة بين النسخ المخطوطة ، مع التعاليق التي يحتاجها الكتاب ، لا سيما التعاليق التاريخية ؛ وما يحتاجه الكتاب من الإحالات الكثيرة التي تعين المطالع على تنسيق الشتات ، وأهم طبعات النفح الطبعة الأوربية .

في سنة ١٨٤٥ م سافر العلامة دوزي (١٨٢٠ ـ ١٨٨٣ م) مع عروسه الهولاندية إلى ألمانيا ، لقضاء شهر العسل ، ويا له من شهر عسل ذلك الذي قضاه في مكتبات ألمانيا ؛ ليعلق على كتاب المقري ـ نفح الطيب[2] ـ الذي اشترك هو والأساتذة « كرهل » و « ديجا » (١٨٢٤ ـ ١٨٩٤ م) و « وليم رايت » (١٨٣٠ ـ ١٨٩٩ م) في نشر القسم الأول منه بليدن بين سنتي ١٨٥٥ ـ ١٨٦١ م بعنوان « متن المقري عن تاريخ وأدب الأندلس العربي » وقد قدّم لهذه الطبعة التي خرجت في جزأين الأستاذ ديجا بمقدمة ترجم فيها للمقري ، وتمتاز هذه الطبعة بفهرس الرجال ، والكتب ، والتعاليق المفيدة ، وضبط بعض الأعلام والكلمات .

وفي سنة ١٢٧٩ هـ طبع في أربعة أجزاء بمطبعة بولاق في مصر ، وقد

(١) يقول الاستاذ الشرايبي (من فاس) إن طبعات نفح الطيب ناقصة عن أصوله المخطوطة .

(٢) انظر « المستشرقون » لنجيب العقيقي ط دار المعارف بمصر س ١٩٤٧

صحح هذه الطبعة الشيخ محمد بن عبد الرحمن المشهور بقطة العدوي ، وهذه الطبعة تكاد تكون خالية من التعاليق مع التصحيف، ولا سيما في الأسماء.

وفي سنة ١٣٠٢ هـ طبع في مصر بالمطبعة الأزهرية ، وبهامش الأجزاء الثلاثة من هذه الطبعة « مروج الذهب » للمسعودي ، وبهامش الجزء الرابع والأخير « تحفة الأحباب ، وبغية الطلاب ، في الخطط والمزارات، والتراجم والبقاع المباركات » للسخاوي .

وفي سنة ١٩٣٦ م خرج الجزء الأول في سلسلة « مطبوعات دار المأمون » ولكن هذه الطبعة لم يصدر منها إلاّ تسعة أجزاء فيها أقل من ربع الكتاب بصفحات قليلة ، وتمتاز هذه الطبعة زيادة على الضبط بالتعاليق المفيدة التي كتبها الاستاذ أحمد يوسف نجاتي .

وفي سنة ١٩٤٩ م طبع النفح بمطبعة السعادة في مصر بتحقيق الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد في عشرة أجزاء ، وهذه الطبعة دون طبعة دار المأمون ؛ لأن ما فيها من تعاليق قليلة ، هي تعاليق لغوية ؛ أو إشارات إلى اختلاف النسخ .

و ـ ترجمته :

فيما بين سنتي (١٨٤٠ ـ ١٨٤٣ م) خرجت في لندن ترجمة إنكليزية ملخصة للقسم الأول من نفح الطيب بعنوان « تاريخ الدول الإسلامية في إسبانيا» وقد قام بهذا العمل الجليل المستشرق الإسباني كاينكوس (١٨٠٩ ـ ١٨٩٨ م)

أزهار الرياض في أخبار عياض

جعل المقري في كتابه هذا القاضي عياض مركزاً لدائرة معارف مغربية ، تحدث فيها عن الحركة العلمية والأدبية بالمغرب ، وترجم لكثير من العلماء ، ولا سيما الفقهاء منهم ، وما يتخلل استطراداته من شذور وفوائد ، وهو يشعر بنفاسة تأليفه ؛ لما تضمنه زيادة على ترجمة القاضي المستفيضة ، من أخبار ونقول وتفاصيل ذات قيمة ، فيقول « . . . لم أسبق إلى مثلها فيما رأيت ، وإن بعدتُ فيها عن المهيع المطروق ونأيتُ . والإنسان مغرم . ببنيّات أفكاره ، وإن قوبل ما صدر منه بإنكاره (١) » وقد ألف المقري كتابه هذا حين كان بفاس بين سنتي ١٠١٣هـ ــ ١٠٢٧هـ (٢) استجابة لأهل بلده تلمسان الذين رغبوا منه أن يؤلف في عالم المغرب ، ومحدثه ، وقاضيه الشهير.. فهو يخبرنا بهذا الطلب ، وتردده أول الأمر في المقدمة ، فيقول « . . . . وفي هذا التاريخ الغريب ، وردت كتب من تلك

(١) ازهار الرياض ج ١ ص ١٧

(٢) لم نظفر بتعيين للزمن الذي أتم فيه المقري كتابه هذا ، ولكن نرجح أن يكون انتهاؤه منه في آخر ايامه بفاس ، لقول محمد بن يوسف التاملي « وابعثو لنا بعض موسوعاتكم كازهار الرياض في اخبار عياض ان اتممتموها » من رسالة بعث بها إلى أبي العباس مؤرخة بذي القعدة س ١٠٢٦ هـ وفي رسالة أخرى بعث بها اليه، وهو في المشرق مؤرخة ببداية س ١٠٣٨ هـ يشير إلى انتشار أزهار الرياض في المغرب ـ نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٣ ـ وذلك يدل على انه لم ينتشر ، وهو بالمغرب ، لانه أتم تاليفه قبل رحيله بمدة قليلة .

الناحية ، حركت شجو الغريب . . . . وكان من جملة فصولها ، وفروع أصولها ، طلب التعريف والإلمام ، ببعض أحوال الشيخ . . . سيدي أبي الفضل عياض بن موسى . . . وحين ورد عليّ هذا الخطاب الذي تقدّم ، وألفى ركن الاصطبار كاد يتهدّم أو تهدّم ، أضربت عن جوابه حينا من الدهر . . . ثم وقع العزم والتصميم على جواب هذا السائل » وسمّى كتابه « أزهار الرياض في أخبار عياض ، وما يناسبها مما يحصل به ارتياح وارتياض » وقسّمه إلى روضات ثمانية :

١ ـ روضة الورد في أوليّة هذا العالم الفرد .

٢ ـ روضة الأقحوان في ذكر حاله في المنشأ والعنفوان .

٣ ـ روضة البهار في ذكر جملة من شيوخه الذين فضلهم أوضح من شمس النهار .

٤ ـ روضة المنثور في بعض ماله من منظوم ومنثور .

٥ ـ روضة النسرين في تصانيفه العديمة النظير والقرين .

٦ ـ روضة الآس في وفاته ، وما قابله به الدهر الذي ليس لجرحه من آس .

٧ ـ روضة الشقيق في جمل من فوائده ، ولمع من فرائده المنظومة نظم الدرو العقيق .

٨ ـ روضة النيلوفر في ثناء الناس عليه ، وذكر بعض مناقبه التي هي أعطر من المسك الأذفر . .

وأريد أن أشير هنا إلى أن المقري ، أعاد كثيراً من أخبار أزهار الرياض ،

في نَفح الطيب ، وذلك لأن أبا العباس ، كما قلت سابقا لا يستطيع أن يترك شيئا يعرفه في المسألة التي يكتب فيها ، ولو كان ذكره في تأليف متقدم ؛ ولأن المكان الذي ظهر فيه النفح ، غير المكان الذي انتشر فيه أزهار الرياض انتشاراً عظيماً ، وإذا كان نفح الطيب ، لم يزل مرجعا عظيما في حياة الأندلسيين ، فإن أزهار الرياض ، لا يقل عليه قيمة في أخبار المغرب ، وحتى الأندلس .

وألف ابن أخيه في القرن الثاني عشر كتاباً موضوعه ، هو موضوع « أزهار الرياض » الذي ألفه عمه أحمد . ومن هنا غلط كاينكوس ، فنسب كتاب ابن الأخ المجهول للعم المشهور (٢) ولكن الأمر الذي أشكل ، ما دمتُ لم أطلع على كتاب ابن الأخ ، هو أن كتاب هذا الأخير الذي نسبه كاينكوس للعم غلطا ، سُمّي « أزهار الكمامة ، أو أزهار الرياض في أَخبار القاضي عياض » ونحن نعرف أن أزهار الكمامة منسوب للعم ، واتحاد الاسم يبقي الإشكال إن لم يزد فيه .

تـذييل :

كتب أبـو عبد الله محمد بن عبد الله القنطري القصري ذيْلًا على الأزهار ، جمع فيه ما قاله بعض المؤرخين في القاضي عياض ، وغفل عنه

---

(١) راجع « تراجم عالمية . . . » لجماعة من الفرنسيين ج ٢٦ ص ١٩٢

صاحب الأزهار ، ولم يقف عليه ، يقع في نحو ثلاث كراريس توجد منه نسخة ضمن مجموع رقم ٢٩ بالخزانة العامة بتطوان .

طبعه :

طبع الجزء الأول من أزهار الرياض في المطبعة الرسمية العربية بتونس سنة ١٣٢٢ هـ وقامت بطبعه إذاك « الشركة التونسية لطبع الكتب العربية » التي لم تعمر طويلًا ، كأكثر المشروعات التونسية رزقنا الله الصبر ، والدأب ، والإخلاص . . . وهذه الطبعة محرفة تحريفا مخجلا ، وخالية من التعاليق ، وليس فيها مقدمة ، تعطينا فكرة عن المخطوطات المعتمدة ، وعن كيفية التحقيق .

وفي سنة ١٩٣٩ م بُدئ بإخراجه كاملًا بعناية بيت المغرب بالقاهرة ، وقد وصلتنا من هذه الطبعة التي تمتاز بالتعاليق القيمة ، والفهارس المرشدة ، ثلاثة أجزاء ، انتهت بانتهاء الروضة الثالثة .

فتح المتعال في مدح النعال

ها هو ذا أبو العباس ، يجمعه ناد بالقاهرة مع بعض الأعلام ، فيتحدثون ويتحدث ، وما أسرع أن يصل بهم الحديث إلى الكلام عن « النعل النبوية العظيمة ، ومثالها الكريم ، وما قيل فيه من الأمداح النثيرة والنظيمة » فتنشرح نفس المقري ، فإذا هو ينشد القصائد الطوال في النعل ،

فيثير في بعض الحاضرين مرض النفوس الضعيفة ـ الحسد (١) ـ ويعجب به الآخرون ، فيطلب منه أحدهم أن يكتب في الموضوع ؛ ويلح في ذلك ، فيستجيب المقري للطلب . وما أيسر التأليف عليه ! ولو أقف بك عند هذا الكلام ، فستظن أنني أعتقد أن فكرة التأليف في هذا الموضوع عند أبي العباس ، إنما هي وليدة ذلك النادي . وهذا ما لا أرتاح إليه ، بل أشعر شعوراً قوياً أن المقري ، راودته فكرة التأليف في هذا الموضوع قبل أن تطأ قدمه المشرق ، وإنما تأخر عن الكتابة فيه لأمور لا يستبعد أن تكون أقواها رغبته في أن يكون ذلك بعد زيارة صاحب النعل ، وأن تكون الكتابة في المشرق حيث المثال الكريم ؛ ولتسنح الفرصة بكتابة شيء في المقام النبوي . وقد اشتغل به تحت سقفه كما تقدم ، وكأني بك ترتقب شيئا، يشبه الدليل ، إن لم يكنه .

اعلم إذن أن المقري التمس مناسبة في أزهار الرياض؛ ليتحفنا بمعلومات عن النعل النبوية؛ ولينقل لنا أشعارا في مدحها ووصفها ؛ وليقول « قلت : وقد اعتنى الناس والأئمة بتمثال النعل الكريمة ، وكيف لا ، وحُقّ على كل مؤمن أن يفليَ لمشاهدتها الفلا ، فإذا شاهدها قبّلها ألفا وألفا ؛ وتوسل بصاحبها إلى الله الكريم زلفى ، ولثم ثراها لثما ، وأزاح به عن نفسه حوبا وإثما ، وجعلها فوق رأسه تاجا ، وقد أفردها أبو اليُمْن ابن عساكر بالتأليف ، وصنف فيها جزءا مفردا ، وكذلك أفردها بالتأليف أبو اسحق ابراهيم بن

(١) انظر ص ٣ من مخطوطة الصادقية .

محمد بن خلف السُّلمي الشهير بابن الحاج من أهل المرية ، وكذا غيرهما (١) » ويتحدث في نادي القاهرة المشار إليه ، فيقول « إني قد كنت أذكر من محاسن المثال الوافية ، أكثر من مائة قافية مما جمعته بالمغرب » فأنت ترى أنه قد اعتنى بالموضوع عناية عظيمة ، وعرف الكتب التي أُلفت فيه ، وجمع القصائد جمعا ، يقرب أن يكون للتأليف ، لا لمجرد « الثواب » تستطيع أن تقول : اعتنى ذلك الاعتناء ، لشعور ديني مسيطر ، وذلك قليل عند من يرى فلي الفلاة ، ولكن هذا الشعور الديني نفسه ، هو الذي يجعلني أميل إلى أن أبا العباس ، فكر في التأليف ، وهو بالمغرب ، لحرصه على أن يكون له فضل الكتابة في الموضوع ، أو ثواب الكلام فيه ، هو الذي جعله يلتمس لذلك مناسبة في أزهار الرياض ، ولكن كلام مناسبة لا يكفي المقري ، سيما ، وهو حريص على أن يكون ممن شملهم فضل كتاب في النعل ؛ فهو بعد ما يقص علينا حكايات غريبة في الباب الرابع من فتح المتعال ، يأبى إلاَّ أن يكون بطل حكاية منها ، فيقول « قلت : وقد رأيت له هذه الأيام بالقاهرة المعزية بركة عجيبة ، وذلك إني جعلت هذا الموضوع الذي تشرف بالنعل والمثال في خزانة مع بعض كتب ، ففتحتها لآخذ شيئا من الكتب ، فاذا بعقرب ميتة فوق الأوراق يابسة ، كأنها مضت لها مدة مديدة ، وما أرى ذلك إلاَّ من بركة المثال الشريف »(٢)

هذه النقول التي يُستنتج منها شيء ، يؤيّد رأينا ، وهذا التصوّر

(١) انظر أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٦١

(٢) انظر ورقة ٩٤ من فتح المتعال مخطوط بالصادقية رقم ٩٧٥

لشخصية المقري ، ونظرة أهل عصره لمثل هذه الموضوعات ، يجعلنا كل ذلك نثبت على الشعور . وعند الله حديث النفوس .

وفتح المتعال هذا رتّبه المؤلف على فاتحة ، وأربعة أبواب ، وخاتمة .

أما الفاتحة ؛ في معنى النعل والقِبال والشِّراك والشِّسْع في اللغة ، وما يناسب ذلك من شوارد مقتنصة .

وأما الباب الأول ، فذكر فيه بعض ما ورد في النعال الشريفة من الأحاديث النبويّة وتفسيرها .

والثاني تعرض فيه لصفة المثال ، وبعض أقوال العلماء فيه .

والثالث ذكر فيه مقطّعات ، وقصائد في مدح المثال ، ورتبها على حروف المعجم .

والباب الرابع في سرد جملة من خواص المثال ومنافعه .

والخاتمة ذكر فيها قصيدة رجزية له في النعل . سيأتي الحديث عليها ، ومسائل أخرى . وهذا الكتاب يمثل في الحقيقة المرحلة الثانية من تأليف أبي العبّاس في الموضوع ؛ لأنه ألف قبل فتح المتعال كتابا أسماه « النفحات العنبريّه في نعال خير البريّة » ثم أراد أن يزيد في الموضوع ، ويضيف شيئا جديدا ، ولما فعل ذلك غيّر العنوان ، فصار « فتح المتعال في مدح النعال » وقد غلط صاحب سلافة العصر ، فقال : إنه اختصر فتح المتعال في كتاب سماه النفحات العنبرية . . . (١)

---

(١) انظر السلافة ص ٥٩١

وتـوجد من التأليف الأول « النفحـات العنبريـة » نسخة بالخـزانة الظاهرية ، أو المكتبة العمومية بدمشق رقم ٥١ قسم السيرة النبوية (١) وتوجد أيضا نسخة بالمكتبة الأزهرية رقم ٣٩٣٢ قسم التاريخ في ٥٦ ورقة بقلم معتاد بخط سويفي بن أحمد الجبل نُسخت سنة ١٣٢٣ هـ.

وتوجد نسخة في مكتبة تطوان رقم ٦٢ .

أما فتح المتعـال فقد اطّلعتُ على عـدّة نسخ منه ، سأتحدث عنهـا حسب تاريخ نسخها :

أ ـ اطلعت على نسخة جميـلة الخط بمكتبة الشيخ الأريحي محمـد الطاهر ابن عاشور ـ رقم ١٩٤ قسم دلائل النبوة والسِّيَر ـ جاء في آخرها ما يلي « وكان الفراغ من تحريره ضحوة يوم الثلاثاء لثلاث وعشرين مضت من جمادى الآخرة من عـام ١٠٣٤ هـ بتونس المحروسة بالله على يـد العبد الفقير . . . محمد الجزنائي المغربي المالكي ، الفاسي الـدار . . . كتبه من نسخة بخط مؤلفه الشيخ الفقيه العـالم العلم ، الصـدر المحقق المـدرس مفتي المسلمين أحمد بن محمد المقري التلمساني حفظه الله .

ب ـ ووقفت على نسخة بخـزينة جـامع الزيتونة رقم ١٨٢٣ خطهـا مغربي واضح ، وهي بخط أحمد بن علي بن أحمد الشريف البجـائي المولد ، الفاسي الأصل ، وكان الفراغ من نسخها ضحوة يوم السبت ثاني ذي الحجة سنة ١٠٦٠ هـ .

---

(١) انظر « خزائن الكتب في دمشق وضواحيها » لحبيب الـزيـات ص ٧٤ مطبعة المعارف مصر س ١٩٠٢ م

ج ـ ووقفت على نسخة بخزينة جامع الزيتونة رقم ١٨٢٢ جاء في آخرها ما يلي « ثم حررت هذه النسخة ، بالمدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام بين القبر الشريف والمنبر ، بالروضة السامية ، تجاه الرأس الشريف لصق شباك الحجرة المعظمة النبوية ، في الناحية التي تليها سارية التوبة ، في الصف الذي فوق باب الحجرة النبوية المعروف بباب الوفود ، وكان ابتداء ذلك يوم الثلاثاء غرة رمضان من عام ثلاثين وثلاثة أعوام وألف ، وانتهاؤه يوم الثلاثاء الخامس عشر من الشهر المذكور ، وكنت أكتب كل يوم من وقت الضحى إلى الظهر ، فكملت ولله الحمد والمنة على هذه الصفة في نصف شهر ، وقد نظمت بعض ما ألحقته بهذا المحل الأسنى » وهي بخط معتاد فرغ من نسخها السيدُ عبد الفتاح المصري يوم الإثنين عشرة جمادى الثانية سنة ١٠٦٨ هـ .

د ـ ووقفت على نسخة بالصادقية رقم ٩٧٥ بخط عبد الفتاح المصري ناسخ المخطوطة المتقدّمة . ونسخة الصادقية خالية من تاريخ النسخ ، وتمتاز هذه المخطوطة ، والتي قبلها عن بقية المخطوطات التي اطلعت عليها بالرسائل التي قيلت في تقريض الكتاب وهي :

١ ـ رسالة من ([١])بن عبد الرحمن بن عبد الوارث الصديقي المالكي
٢ ـ رسالة من عبد الكريم الغنيمي القاضي بالقاهرة إذاك .
٣ ـ رسالة من الشيخ « تاج الدين بن أحمد بن إبراهيم المالكي المكي ،

(١) بياض بالاصل .

خادم العلم الشريف بالمسجد الحرام المنيف ، والخطيب بذلك المنبر والمقام » .
٤ ـ رسالة في آخرها « الفقير أبو الإسعاد .... »

هـ ـ واطلعت على نسخة جميلة الخط بمكتبة المؤرخ الباحث الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب جاء في آخرها ما يلي « وكان الفراغ من تحريره بشوال من عام ثلاثين وألف إلاّ مواضع حررت ، وألحقت بعد ذلك وكله بالقاهرة المحروسة ، قاله مؤلفه العبد الفقير أحمد بن محمد المقري المغربي وفرغ من نسخ هذه المخطوطة السيد مصطفى بن إبرهيم الإزميري سنة ١١١٠ هـ .

و ـ ووقفت على نسخة بخزينة جامع الزيتونة رقم ١٨٢١ حبسها المشير أحمد باشا باي سنة ١٢٤٤ هـ وهذه النسخة جميلة الخط مذهبة الطالع ، تحتوي على ١٥٧ ورقة في الصفحة ٢٥ سطرا معدل السطر ١٠ كلمات . وهذه المخطوطة نسخها الشيخ إبراهيم بن عبد القادر الرياحي ليوسف خوجة صاحب الطابع فرغ من نسخها « يوم الثلاثاء قرب الزوال أوائل صفر الخير عام ١٢١٧ هـ »

وتوجد نسخة في المكتبة الخديوية رقم ٥٦ قسم الحديث فيها ١١٩ ورقة ، ونسخة ثانية رقم ٥٢٦ قسم الحديث فيها ٩٥ ورقة (١) وتوجد نسخة في ياني جامع باستامبول ، ونسخة بليبسك رقم ٤١ ونسخة بقوالة رقم ١٤١

والمقري بعد ما نثر في موضوع النعل ، نظم أيضا قصيدة رجزية فيه ، ذكرها في تأليفه الصغير « النفحات العنبرية ... » ثم غير شيئا منها ، وذكرها

(١) راجع فهرس الخديوية ج ١ ص ٣٨٠ ط مصر س ١٣١٠ هـ

مرة ثانية في آخر فتح المتعال وقال : إن هذا النظم يصلح أن يكون تأليفا مستقلا ، وعزم على شرحه ، ولم نتيقن هل شرحه قبل موته ، أم توفي دون تحقيق العزم ؟ ولكن بروكلمان يذكر تأليفا مستقلا للمقري منه نسخة مخطوطة في غوطة رقم ٦٣١ بعنوان « نفحات العنبر في وصف نعل ذي العلى والمنبر » وهو العنوان الذي اختاره المقري لمنظومته . ويبدو من هذا أن المقري نفذ ما عزم عليه ، وشرح قصيدته .

وأنت لو ذهبت تلتمس في هذا الكتاب ما اعتاد به المقري في تآليفه من الاستطراد ، لوجدت ميزته تلك واضحة جلية . فحرمة الموضوع ، وحنينه إليه ، لم يباعدا بينه وبين مفارقته حينا ؛ ليحدثنا عن رسائل وردت إليه من المغرب ، وعن أصحابها . وكم في استطراده هذا من فوائد تسر الدارسين لذلك العصر خاصة .

إتحاف المغرم المغرى بتكميل شرح الصغرى

هذه حاشية في علم الكلام ، كتبها المقري ، وهو بفاس في عشرة أيام كما أعلمنا بذلك . وكان الفراغ من تحريرها يوم الأربعاء ٢٦ من محرم سنة ١٠٢١ هـ وفي سنة ١٠٢٨ هـ أضاف ما أغفل ذكره في التحرير الأول ، وكان ذلك بثغر الإسكندرية . وعمل أبي العباس في هذا التأليف لا يتجاوز التنسيق بين كلام مقيد مع الطابع الشخصي الضعيف جدا . فاستمع إليه يقول « هذه نبذة جمعتها أيام القراءة بفاس على شرح الصغرى للإمام السنوسي من

بطائق كانت عندي نتفا ، خشيت عليها يد الضياع ، وبعضها بخط أشياخنا الذين لصيتهم في الخافقين شياع ، فلا اعتراض علي إن قدمت شيئا من شرح المصنف ، وأخرته ؛ لأن هذه مسودة سيقع إن شاء الله في الأجل كتبها على ما ينبغي ؛ لأني كتبتها بهذه الصفة على عجل ، وسأضيف إلى ذلك إن شاء الله تعالى ما قيدته من مثل ذلك عن عمنا ومفيدنا . . . الشيخ سيدنا سعيد المقري (١) » وغلط الذين كتبوا عن المقري (٢) ، فظنوا أن له كتابين في التوحيد أحدهما إتحاف ، أو إفادة المغرم (٣) المغرى بتكميل شرح الصغرى ، والثاني حاشية على أم البراهين ! ! والحقيقة أن المقري له حاشية على شرح الصغرى (وهي أم البراهين) سماها « إتحاف المغرم . . . » ثم أضاف إليها شيئا مستقلا . وانفرد صاحب أسماء المؤلفين فيما اطلعت عليه من المصادر بذكر كتاب للمقري عنوانه « إتحاف المغرى في تكميل شرح الكبرى » ويبدو أن هذا غير صحيح ، وأنبه أن إسماعيل باشا وقع في غير هذه السهوة في حديثه عن صاحب النفح . وما أكثر غلطاته ! ونحن إذا رجعنا إلى أبي العباس نفسه ، فإننا نجده لا يشير في حاشيته على الصغرى التي وقفت عليها إلى تكميل شرح الكبرى إلاّ أن يكون ألف هذه الحاشية بعد ذلك . وهذا ليس قريبا ؛ لأنه فرغ من

---

(١) انظر مقدمة الحاشية ضمن مجموع مخطوط بخزينة جامع الزيتونة رقم ٢١٠٣

(٢) راجع خلاصة الاثر ج ١ ص ٣٠٢ ـ شجرة النور الزكية ج ١ ص ٣٠٠ ـ تعريف الخلف ص ٤٤ ـ اليواقيت الثمينة ـ اسماء المؤلفين ج ١ ص ١٥٧

(٣) كلمة المغرم غير موجودة في غالب المصادر التي ذكرت الكتاب ، وهي من عنوان الحاشية .

منظومته « إضاءة الدُّجُنّة في عقائد أَهل السنّة » في آخـر أَيامه ، ولم يشر إلى تكميل شرح الكبرى فيها .

وقفت على نسخة من « إتحاف المغرم المغرى . . . » ضمن مجموع رقم ٢١٠٣ بخزينة جامع الزيتونة ، فرغ من نسخها السيد علي بن عمر الفلوسي لأحمد بن عبد الله السوسي (١) يوم السبت ٢٦ صفر سنة ١١٧٢ هـ وتوجد أَيضا نسخة بالمكتبة العمومية التونسية (العطارين) رقم ٤٨٠

الجمان في أخبار الزمان

هذا كتاب في التاريخ يُعدّ من مؤلفات صـاحب النفح ، تنسبه إليه كثير من المصادر كاليواقيت الثمينة التي يقول مؤلفها إنه وقف عليه ، وعدّه من تآليفه أَيضا إسماعيل باشا البغدادي ، وحين درس المستشرق الفرنسي دي ساسي (١٧٥٠ ـ ١٨٣٨ م) بعض المخطوطات كان من بينها الجمان الذي نسبه هو أَيضا إلى أَحمد المقري (٢) ونجد أَيضا كثيراً من نسخ هـذا الكتاب المخطوطة في أَولها تأليف أَبي العباس أَحمد المقري . . .

وبعد الدرس والبحث تبيّن لي أَن الكتاب ليس من تآليف المقري ، ولا خطّه قلمُه ، وإنما للمقري به صلة ضللت كثيراً من النـاس . وهذه الصلة تتردد بين أَمرين . إما أَن يكون أَبو العباس نسخ الكتاب ، فظنه

(١) وقفت على خط هذا الرجل بطرة فتح المتعال نسخة الصادقية ص ١٠٠ ويبدو أنه كان من المتسبين للمعرفة .

(٢) راجع معجم المطبوعات لسركيس ص ٩٠٣

بعض النـاس الذين لا يفقهون أنه من تأليفه ؛ لأننا نجد عبـارة النسخ في أول الكتاب « قلت كنت أزهد في هذا ، ولا أنظـر فيه البتة فما كان إلاّ أن رأيت الشيخ رحمه الله في نومي فأعطاني في النوم ، فمـا أصبح الصبح إلاّ وأنا من بركاته أخذت في نسخه » (١) وإما أن يكون أبو العباس اختصر الكتاب ، فنُسب إليه ؛ لأننا نجد في أول بعض النسخ المخطوطة « هـذا مختصر من كتاب أخبار الزمان » ثم يقول قال المؤلف .

والمؤلف الحقيقي لهذا الكتاب هو محمد بن علي الصقلّي الأندلسي البرجي الشهير بالحاج الشطيبي المتوفى سنة ٩٦٣ هـ

والذي جعلني أشك كل الشك في أن يكون هذا الكتاب من تأليف المقري أدلة متعددة :

١ ـ أسلوب الكتابـة . فالأسلوب الذي عوّدنا به المقـري في تآليفـه لا نجد له أثرا في هذا الكتاب ، ولا يتصل الأسلوب الذي كُتب به بأبي العباس اتصالا قريبا أو بعيدا ، وكذلك ما امتاز به المقري من الاستطراد ، وقـوّة البيان ، فإنه معدوم .

٢ ـ علماء المغرب الأقصى لا يشكون في نسبة الكتاب للحاج الشطيبي ، ولا يشيرون لصلة بينه وبين المقري (٢)

---

(١) راجع أول الكتاب مخطوط بخزينة جامع الزيتونة رقم ٦٥٦٠

(٢) راجع دليل مؤرخ المغرب الاقصى ص ١٨٤ ـ إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج ١ ص ٦٦ ط الرباط س ١٩٢٩ ـ الاستقصاء ج ١ وجاء منسوبا أيضا للشطيبي في كتاب « عصر سلاطين المماليك » ج ٣ ص ١١٦

٣ - المصادر القديمة التي تحدثت عن أبي العباس ، لم تشر لهذا الكتاب كخلاصة الأثر وغيرها .

٤ - نجد في الورقة الأولى من نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٥٩٩ نسبة الكتاب للحاج الشطيبي ، ونسبته للمقري معا . وهذا يدل على أن الشك قديم . ونجد أيضا نسخة ثانية في دار الكتب المصرية فرغ من نسخها سنة ١٠٠٩ هـ وتاريخ هذا النسخ يضاعف شكنا المتقدم .

والكتاب عديم الجدوى ليس فيه فائدة البتة ، وإن دل على شيء ، فإنما يدل على غفلة مؤلفه ، وضعف تفكيره رحمه الله . وقد تصفني بالمبالغة ، أو بالتحامل ، ولكن اقرأ الكتاب ، فستجدني قصرت في وصف المؤلف ، وفي إظهار قيمة الكتاب إن ثبت أن له قيمة .

وتوجد نسخة من هذا الكتاب بخزينة جامع الزيتونة رقم ٦٥٦٠ ونسخة ثانية غير كاملة ضمن مجموع رقم ٤٩٣٥ وفي المكتبة الصادقية نسخة جميلة الخط رقم ٣٥٣٥ فُرغ من نسخها يوم الأحد ٣ ربيع الثاني سنة ١١٩٦ هـ ووقفت على نسخة بالمكتبة الوهابية جزى الله صاحبها خيراً . وكان الفراغ من نسخها يوم الخميس ٢٦ ذي الحجة سنة ١١٩٠ هـ وتوجد نسخة بمكتبة جامع القرويين رقم ٢٧٥٤ وفي دار الكتب المصرية عدة نسخ من هذا الكتاب . نسخة رقم ١٤١٦ فرغ من نسخها علي الغرياني في ٢ محرم سنة ١٢٥٣ هـ ونسخة رقم ١٤٤٧ فرغ من نسخها محمد الديب في شهر محرم سنة

١٢٦٥ هـ ونسخة بقلم مغربي رقم ١٥٩٩ ونسخة أخرى رقم ١٥ [١] وفي مجموع مخطوط بمكتبة الشيخ أحمد الجريدي اختصار لكتاب الجمان الذي نسبه المختصر للمقري . وهو حموده بن محمد النوري .

بقيـــة كتبه

إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة :

هذا نظم للمقري في علم الكلام ذكر فيه مسائل التوحيد بإيجاز جاء في آخره قوله :

وكان إتمامي لها بالقاهره ★ وفيه تاريخ حلاه الظاهره

أي أنه أتمه سنة ١٠٤٢ هـ (٢) .توجد نسخة مخطوطة من هذا النظم بالصادقية ضمن مجموع رقم ٢٨٠٣ ونسخة بخزينة جامع الزيتونة .

ونسخة بالمكتبة العمومية (العطارين) رقم ٢٨٢ شرح هذا المنظومة الشيخ محمد بن عمر الغدامسي شرحا وافيا مفصّلا. توجد نسخة مخطوطة من هذا الشرح بخزينة جامع الزيتونة رقم ٢٠٤٧ فرغ من نسخها السيد عبد السلام بن علي في ربيع الثاني سنة ١١٦١ هـ وشرحها أيضا الشيخ محمد عليش

(١) راجع فهرس دار الكتب المصرية ج ٥ ص ١٥١ ط القاهرة س ١٩٣٠

(٢) يدل هذا على ان المقري توفي بعد س ١٠٤١ هـ وهذا خلاف ما رجحناه وخلاف تاريخ الوفاة الذي جاء في بيت الاكرمي :

قد ختم الفضل به ❁ فأرخوه « خاتم »

وأنبه هنا أنني وقفت أخيرا على شك آخر في سنة وفاة أبي العباس هل توفي س ١٠٤٦ هـ - ١٠٤٧ هـ - ١٠٤٠ هـ انظر مقدمة شرح الغدامسي على منظومة « إضاءة الدجنة.. »

(١٢١٧ هـ - ١٢٩٩ هـ) سنة ١٢٩٥ هـ وهو شرح ليست له قيمة كبيرة طبع هذا الشرح بالقاهرة سنة ١٣٠٦ هـ بهامش « هداية المريد لعقيدة أهل التوحيد »

حسن الثنا في العفو عمن جنى :

هذا كتاب صغير جمع فيه أبو العباس بعض الآيات والأحاديث والآثار الواردة في طلب العفو عن المذنب . طبع طبعة حجرية بمصر في ٤٧ صفحة بدون تاريخ .

مزدوجة :

هذه قصيدة فيها طرافة وظرف ، وفحش دل على انطلاق غرائز مكبوتة . وسأذكر شيئا منها في النماذج . طبعت المزدوجة طبعة حجرية بمصر سنة ١٢٧٤ هـ - ١٢٧٨ هـ - ١٢٩٠ هـ ضمن مجموع اختاره، وأشرف على طبعه محمود أفندي الجزائري.

روضة الآس ، العاطرة الأنفاس ،
في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس :

هذا من مؤلفات المقري الثابتة ، وهو لم يشتهر . ولا نعرف هل توجد منه نسخة الآن أم لا . وذكر الشيخ عبد الحي الكتاني أنه وجد اسمه في برنامج المكتبة السلطانية بفاس ، ولكنه لم يقف عليه ، وأثبت أبو علي المعداني التادلي في كتابه الروض اليانع في مناقب أبي عبد الله صالح

الشرقاوي البجعدي مكتوبا من أبي عبد الله محمد بن حمزة العياشي يقول فيه « وقد وقع بيدنا طرف من كتاب المقري سماه « الروضة العاطرة الأنفاس فيمن لقيته بمراكش وفاس » فيها ترجمة الهشتالي والزياتي وأضرابهم من علماء حضرة الدولة الذهبية ، وجلب مقطّعات من أشعارهم ، وهي مفيدة في بابها غاية إن من الله علينا بكمالها ، فإن ما عندنا منها مبتور الأول والآخر (١) »

وهذا الكتاب ألفه المقري في فاس كما يفهم من كلامه .

قطف المهتصر من أفنان المختصر :

هذا شرح لمختصر الشيخ خليل ، أو حاشية على أحد شروحه الكثيرة .
ألف هذا الكتاب في المشرق ؛ لأننا نجد الشيخ محمد بن يوسف المراكشي التاملي يقول في رسالة للمقري مؤرخة ببداية سنة ١٠٣٨ هـ « وأعلمونا بتأليفكم الذي سميتموه « قطف المهتصر من أفنان المختصر » هل خرج من المبيضة أم لا ؟ وودنا لو اتصلنا منه بنسخة ، وقد اشتاق فقهاء هذا الاقليم إليه غاية كالفقيه قاضي القضاة محبكم سيدي عيسى وغيره من أخلاء خليل في كل محفل جليل » (٢)

وتنسب بعض المصادر للمقري حاشية على خليل غير قطف المهتصر (٣) ولا نستطيع أن نطمئن لهذه النسبة ما دامت الحاشية مجهولة الاسم ، ولم

(١) راجع فهرس الفهارس ج ١ ص ٣٣٧ وذكر المؤلف كتابه هذا في نفح الطيب ج ٩ ص ٢٨٩

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٣

(٣) انظر شجرة النور الزكية ج ١ ص ٣٠٠

يُشَر إليها في النفح ، وإن ذكر محمد الغدامسي أن للمقري حواشي على المختصر (١) لكنه لم يتحدث لنا عنها حديثا يطمئن إليه .

الشفاء في بديع الاكتفاء :

هذا أحد تآليف المقري ، ذكره أحمد الشاهيني مع كتاب « الأصفياء » للمقري أيضا في رسالة وجهه بها من دمشق . إلى المقري ، وهو إذاك في القاهرة (٢) . ويفهم من فقرات الرسالة أن الكتابين ألفهما في المشرق . ولا نعرف الآن من أمر هذين الكتابين سوى العنوان .

ومن مؤلفات المقري « أنواء نيسان في أنباء تلمسان » وهو غير معروف ، ولعل المؤلف لم يتممه ؛ لأنه قال « وقد كنت بالمغرب نويت أن أجمع في شأنها (يعني بلده) كتابا ممتعا أسميه بأنواء نيسان في أنباء تلمسان ، وكتبت بعضه ، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار ، وارتحلت منها إلى حضرة فاس . . . فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة » (٣) ولم يخبرنا أنه أتمه إلى زمن انتهائه من تأليف النفح . ومن الكتب التي تنسب لأبي العباس « عرف النشق في أخبار دمشق » (٤) وليس بعيدا أن يكون هذا الكتاب ، لم يبرز منه للوجود سوى الاسم ؛ لأننا نجد المؤلف يقول في

---

(١) راجع مقدمة شرحه لمنظومة « إضاءة الدجنة . . » مخطوط بخزينة جامع الزيتونة .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٢٠

(٣) نفح الطيب ج ٩ ص ٣٤٢

(٤) رغم هذا التخليط في العنوان ، فإن جميع المصادر تذكره بصيغته تلك .

سنة ١٠٣٩ هـ « وفي نيتي أن أجمع في ذلك كتابا حافلا أسميه « نشق عرف دمشق » أو « مشق قلم المدح لدمشق » (١) وله الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين ، وهو نظم جمع فيه أسماء الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد أشار إليه في فتح المتعال ، وله كتاب « البدأة والنشأة » قال المحبي كله أدب ونظم ، وتنسب إليه الكتب التالية : « الغث والسمين والرث والثمين » و « رفع الغلط عن المخمس الخالي الوسط » (٢) و « القواعد السرية في حل مشكلات الشجرة النعمانية » (٣) و « نيل المرام المغتبط لطالب المخمس الخالي الوسط » (٤) و « النمط الأكمل في ذكر المستقبل » و « أرجوزة في الإمامة » و « نظم في علم الجدول » وكان الشيخ يجيد هذا الفن ، وينسب إليه شرح على مقدمة ابن خلدون (٥) وله شرح في أربع كراريس على قصيدته التي يقول في مطلعها :

سبحان من قسم الحظو * ظ فلا عتاب ولا ملامه

وذكر صاحب اليواقيت الثمينة أنه اطلع على هذا الشرح . وفي إحدى رحلات أبي العباس البحرية هال البحر واشتدّ ، فبقي في البحر ستة أشهر ، ألف فيها كتابا في علم الهيئة ، وجد فيه حين خرج كثيراً من

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ٢٤٢

(٢) منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٣٤٢

(٣) منه نسخة مخطوطة بمكتبة برلين رقم ٤٢٢٢

(٤) منه نسخة ببرلين رقم ٤١١٩

(٥) انفرد بذكر هذا الشرح فيما اطلعت عليه من مصادر الشيخ مخلوف في شجرة النور الزكية ج ١ ص ٣٠٠

الأخطاء سببها هول البحر ، وأخبرنا أنه لم يستطع إصلاحها؛ لأن الكتاب نسخ ، وانتشر بين الناس (١) وانفرد اسماعيل باشا البغدادي بنسبة كتاب للمقري اسمه « الدر المختار من نوادر الأخبار » (٢) ويبدو أن الأستاذ وقع في غلط فاحش ؛ لأني وقفت بخزينة جامع الزيتونة على مجموع مخطوط رقم ١٨٣٦ به هذا التأليف ، ولكنه منسوب لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد المُقري الأنباري وإلى هذا المحدّث نسبه أيضا حاجى خليفة (٣) وأسلوب الكتاب بعيد كل البعد عن أسلوب المقري في كتبه ، والذي يقرب سهو البغدادي إن لم يحققه ، عدم نسبة هذا الكتاب للمقري في المصادر القديمة . ومن تآليف أبي العباس « أزهار الكمامة في أخبار العمامة » أثبت الشيخ عبد الحي الكتاني أنه اشتغل به عند رأس الرسول بالروضة النبوية .

مكانته في نفوس معاصريه

إذا كانت عناصر الشر متوفّرة في الإنسان ، وقد تكون دعامة في تركيبه الحياتي ؛ ليكون . إنساناً . فإن هذه العناصر تظهر جلية في غير قناع في المجتمعات المتأخرة ، وفي عصور الانحطاط ، وزمن فراغ الحياة القاتل .

(١) انظر محاضرات اليوسي ص ٥٨

(٢) راجع « إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون . . » ج ١ ص ٤٤٨ ـ أسماء المؤلفين ج ١ ص ١٥٧

(٣) انظر كشف الظنون ج ٢ ص ٢٣٩ ط مصر س ١٢٧٤ هـ .

في هذا الجو الذي يحافظ على خشونتها ، تنمـو ، ويكون له أثر . ومن هنا يكثر النفاق في هذه المجتمعـات ، وينهض الكيد الذي يحركه الحسد ، فيعم الاضطراب ، ويعز الأمن . وذلك الذي كان في القرون الأخيرة من الحياة الإسلامية ، ومـا زالت الذيـول في امتداد . . لانعـدام الوعي ، والتعليل الصائب ، وذلك الذي انتشر في عصر أَبي العبـاس أحمد المقري ، وضاق به ذرعا . ترى أتبهج نفوس منافقة ، وعقول بينها وبين تقدير القيم ، والموهوب ، جمودُهـا ، وبلادة حسّ أصحـابها ، أتبتهج بشـاب تلمساني لم يخالط لحيتَه بياض ، يأتي مدينة فاس ، فيحظى برضا البلاط ، ويتـولى مكانة علمية مرموقة في القرويين ، ويكون من نصيبه بسرعة الإفتاء والخطابة والإمامة ، وهي مراكز كانت لها قيمة إذاك ؟ وتحدثت النفـوس ، وكان لرائحة حديثها الكريهة هبوب ، وشعر أبو العباس ، فإذا هو يقـول « . . . وضاعف به كاذب حاسد افتراه ، يـأكل المحاسن ، ويجهل بمساويه أن يحاسن ، ويعيد الحق باطـلا ، والحـالي عاطلا ، ويقلب المنحة محنة ، ويرى المصافاة إحنة ، يخاتل مخاتلة الذيب ، ويكـدّر منـاهل الخلوص والتهذيب ، ويقابل الحق الواضح بالتكـذيب ، ويشتغل بما لا يعنيه . . . » وحين ذهب إلى المشرق لم يسلم من داء النفوس ، سيما في القاهرة كما تقدم . وفي هـذا الوسط نفسه كان له أصدقاء يخلصون له الود ، وطلبة يقدرون قيمته (١) سيما في المشرق ، فقد كان أبو العباس محترما في كثير من الأوساط .

(١) راجع رسالة في نفح الطيب ج ٣ ص ٢٣٧ بعث بها إليه من المغرب علي ابن عبد الواحد الانصاري .

وتمتع بشي غير قليل من هذا الاحترام بما حاط به من اعتقاد في بركته، وقربه إلى الله. فنحن نجد قاضي القاهرة الغنيمي يقول « وها أنا سائل من فيض فضله أن لا ينساني وأولادي وأصحابي من الدعوات بالعفو ... فإن اعتقادي أن الدعاء منكم ... متقبل بلا ريب » ونجد أبا العباس، يكتب « التعاويذ » في دمشق، ويشتهر بإجادة علم الجدول، حتى قيل : كان يستطيع أن يخرج من التراب دنانير ! ! ونستقرئ أخباره في رحلاته، فنجده كلما نزل في بلد إلاّ وبادر بزيارة قبور الأولياء والدراويش (٢) . وقليل من هذا مع الانتساب « للعلم » يكفي في ذلك العصر للإحراز على مكانة بين الناس، تفوق مكانة الزعماء السياسيين اليوم في الشعوب الإسلامية. ونحن إذ نعرف بهذا الجانب من الرجل لا نريد إثارة السخرية، ولا قتل الأذواق، وإنما نريد الكشف الحقيقي عن « هويّة » هذه الشخصية المغربية التي غالى الناس في قيمتها ؛ لمكانة نفح الطيب في النفوس، ولعدم محاولة الغوص على نفسية الرجل، وأزمات حياته، وعصره.

وبعد أن فقد المقري الآن أسباب ذاك الاحترام. فما هي قيمته، ولأيّ شيء نحترمه إن كانت له في نفوسنا حرمة. ذلك ما نريد التعرض له في إيجاز دال، وإيحاء هادف في القسم الأخير من هذه الدراسة.

---

(١) انظر ترجمته في تعريف الخلف. .

القسم الثالث

إن الإنتاج الحق الذي يفتك منك الرضا ، ويحملك على الترنح ، هو الذي توفرت فيه عناصر البقاء من سحر الجمال ، ودقة التعبير ، ووضوح التفكير ، وتجدد المعاني الحية ، وهي التي تكسبه صفة الخلود ، وتجعل صاحبه يكون ، ويكون دائما ، فتنهد بينك وبينه فواصل الزمن ، وتنكمش خطوات السير . فإذا أطرب هذا الإنتاج حينا من الزمن ، ثم ذوى مفعوله ، وخبت ناره ، وصرعه السير ، كان « كالمساحيق » في وجه قهرمانة فطن لها من يبتغي البسيط ، فأعرض ، وإن افتتن بها كثير ، وحسبها المقربون غانية ، فإذا كان مثل هذا الإنتاج يمثل حلقة من حلقات . . . فإنه لا ينال الإعجاب دائما ، إن لم تنفر منه النفوس ؛ لفقده عناصر البقاء .

وكان انتاج العالم الإسلامي في القرون الأخيرة يمتاز بميزة الخلو هذه ، سيما في عصر مترجمنا الذي كان أشد إفلاسا ، وأقرب إلى الموت . فهل استطاع أبو العباس أن يكون انتاجه جميلا في عصر فقد روح الجمال ، وتعبيره مبلغا في غير ملالة في عصر كلف بالحشو ، وما يمت إلى الفراغ بصلة ، وتفكيره واضحا في بيئة تحجرت فيها العقول ، ومعانيه حية بين نفوس ميتة ؟ ذلك ما أشك فيه كل الشك ، وأستغرب صدوره من الرجل الذي درسنا ، وسنلمح .

المقري المـؤرخ :

حقا إن أبا العباس كتب في التاريخ كثيراً ، ودون لنا تاريخ حضارة كاملة، ولكن كل ذلك لم يجعل منه المؤرخ الممحص الذي يستريب فيما لا يطمئن إليه العقل . ومن هنا كان جامعا لما قاله المؤرخون الذين سبقوه من دون أن يحاول استنتاجا ، أو ترجيح رواية على أخرى ، بل هو يطمئن إلى المبالغات ، وينقل الروايات المتناقضة . واستمع إليه يقول « وقد ذكرنا فيما مر عن ابن حيان ما فيه نظير هذا ، وذكرنا فيما مضى من أمر المائدة وغيرها ما فيه بعض تخالف . وما ذلك إلاّ لأنّنا ننقل كلام المؤرخين ، وإن خالف بعضهم بعضا ، ومرادنا تكثير الفائدة وبالجملة فالمائدة جليلة المقدار» (١) هذه الفقرة تشعر بأن الرجل ليست له فكرة خاصة في كتابة التاريخ ، وطريقة يسير عليها ، وإنما ينقل ويروي من غير ربط للحوادث ، ولا محاولة فهم ما ينقل ، وتمييز الصحيح من الباطل ، فهو ينقل الغث والسمين بدون أن يسمح لنفسه الاعتراض على القدماء تورعا عن تكذيبهم مع الاعتقاد بأن هذه الحوادث قد تكون صحيحة ، وأن هذا العالم هو عالم الإمكان، وأن قدرة الله لا تعجز عن شيء . وهذه النغمة يشارك فيها المقري كثير من مؤرخي العرب (٢) ونجد أبا العباس أحيانا ينفي ما ذكره غالب المؤرخين المتقدمين عليه ؛ وذلك لعدم تحقيقه ، وتتبع حوادث التاريخ حسب طريقة

(١) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٥٤ - ٢٧٠

(٢) انظر الحلل السندسية لشكيب أرسلان ج ١ ص ٤٦٧

يـؤمن بها ، ويسير في حدودها ، فهو يقـول : وأي وقت بعث عثمان إلى الأندلس مع أن فتحها بالاتفاق إنما كان زمن الـوليد ، فهـو ينفي وجـود فكرة الفتح أيام عثمان ، وقصد ولاته لتنفيذها مع أن الذي أثبته المؤرخون القدماء خلاف ما زعمه أبو العباس (١) والذي جعل نفح الطيب مرجعا قيما إلى اليوم في تاريخ الأندلس ليس منهج أبي العباس التاريخي ، ولا تمحيصه ، وإنما نقله عن كتب مفقودة كما أشرت سابقا ـ وهذه حسنة المقري ـ وعنايته أيضا برواية النثر والشعر ، وهـذا أفاد من الناحيـة التـاريخية كثيراً . والمصادر المفقـودة التي ينقل عنها المقري كانت موجـودة في أيامه ، واطلع عليها في فاس بمكتبة أبي المعالي زيدان السعدي التي كانت تحتوي على نوادر الكتب المعرفة بحضارة الأندلسيين .

وفي سنة ١٦٢٠ م أسرت سفن إسبانية مركبا مغربيـا في مياه جبل طارق كان مشحونا بآلاف الكتب النادرة ، والتحف النفيسة المملوكة لمولاي زيدان ، وحملت شحنتها إلى إسبانيا ، وضمت الكتب التي نقل عن كثير منها المقري إلى الاسكوريال ، وفي سنة ١٦٧١ م التهمت النار معظم هذا الكنز الفريد ، فلم يبق منه سوى القليل الموجود الآن (٢) فلـولا ما نقله المقري

(١) راجع تاريـخ ابن الاثير ج ٣ ص ٣٨ ط مصر س ١٢٩٠ هـ ـ البيان المغرب في تاريخ المغرب لابن عذاري المراكشي ـ تاريخ أبي الفـداء . وقد كتب الشيـخ عبد العزيز الثعالبي في هذا الموضوع بحثا قيما نشر في آخر كتاب «غزوات العرب في اوربا » لشكيب أرسلان طبع س ١٣٥٢ هـ

(٢) انظر الاستقصـاء ج ٣ ص ١٣٠ ـ تراجم إسلامية ص ٢٥٣ ـ نهـاية الاندلس ص ٢٨٧ ـ مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ص ٢٥٩ ط القاهرة س ١٩٥٢

عن هذه الـكتب المفقودة حين اطلع عليها بمكتبة السلطان ، لبقينـا نجهل شيئا عظيما عن الحضارة الأندلسية . إذن ففضل أبي العباس في معلمته عن الأندلس خاصة ، يرجع لنقله عن كنز مفقود . ترى لـو نظفر بالقيم من ذلك الكنز ، فهل تبقى لنفح الطيب قيمته المعروفة ، وميزة مؤلفه . ذلك ما نراه بعيدا ؛ لضعف شخصية المقري التأليفية ، وافقده عقلية التاريخ .

المقري الشاعر :

إذا كان الشعر هو ذلك الذي يعرفه قدامة بقوله « إنه قـول موزون مقفى يدل على معنى » والذي يعرفه العسكري ، وابن رشيق ، وابن خلدون بما يقرب من تعريف قدامة ، فإن المقري سيكون من فحول الشعراء ؛ لأن علاقته بالخليل متينة ، وحفظه للشعر متـوفر . أمـا إذا فهمنـا الشعر لا كما يفهمه رسكن ، وطه حسين ، حتى لا نوصف بالمغالاة ، وعدم إدراك مفعول الزمن ، وإنما كما فهمه في القـرن السابع الهجـري أبو الحسن حـازم القرطاجني حين يعرفه بقوله « الشّعْر كلام موزون مقفّى من شأنه أن يحبّب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ، ويكرّه إليها ما قصد تكريهه ؛ لتحمل بذلك على طلبه ، أو الهرب منه ، بما يتضمن من حسن تخييل له ، ومحاكاة مستقلة بنفسها ، أو متصوّرة بحسن هيئة تأليف الـكلام ، أو قوّة صدقه ، أو قـوّة شهرته ، أو بمجموع ذلك . وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغـراب ، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخياليّة ، قـوي

انفعالها وتأثرها ! ! » إذا فهمنا الشعر هـذا الفهم الذي يعز وجـوده في العصر الحديث ، فإن أبا العباس سيكون ناظما بارعا ، وأجد شعراء الذيل ... لأن الشعر لا يكون غريبا يتقاضى النفوس الحساسة الإجابة إلى مقتضاه بما أمتعها من هزة الارتياح ، إلا إذا كانت لصاحبه ـ حسب نظرية القرطاجني ـ قوة حافظة ، وقوّة مائزة ، وقوة صانعة ، فبقوته الحافظة تكون خيالات الفكر منتظمة ، ممتازاً بعضها عن بعض ، محفوظا كلها في نصابه ، وبقوته المائزة يميّز ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك ، وما يصح مما لا يصح ، والقوّة الصانعة هي التي تتولى جميع ما تلتئم به كليات الفن الشعري ، والنثر الفني . فأين أبو العباس من كل هذا ؟ أعتقد أنه فاقد لجميع هذه الميزات ، وفاقد للشاعرية الصادقة التي تستمد وحيها من أعماق النفس ، وصفاء الحس . وإذا قلنا هذا ، فإننا لا نقصد إنكار عاطفة رقيقة ، قد نظفر بها في أبيات قليلة قالها المقري ، سيما في حنينه إلى وطنه ، وإنما نقصد نفي الشاعرية المتفجرة . . .

والذي أكسب قليلًا جـدا من شعره رقة تميل إليها النفس في غير إعجاب عنايتُه بالأدب الأندلسي ، وحفظه لكثير من شعر الأندلسيين ، ونثرهم ، ومن هذا الحفظ ، وتلك العناية ، جاءت قوة بيان المقري ، وعذوبته أحايين ، فهو حين ينظم قطعة في غرض من الأغراض الشعرية التي نظم فيه أهل الجزيرة نجد روحها أندلسية ، أو قل موسيقاها ، وإيقاعها ، وأحيانا يأخذ الألفاظ ويحشرها في قطعته ، فتستطيع القيام . . .

أما شعره الديني الذي قاله في النعل وغيره ، فإنه جاء مغسولا سخيفا لا تتجاوز قيمته نظما مغربيا في « الفقه » لأنه لم يجد في هذا الموضوع ذلك الشعر العذب الذي يقتبس منه كما يقتبس، ويضمن في الأغراض الأخرى في غير ندرة ، فيستر إفلاسه بغنى غيره . وإذا رجعنا لمزدوجته التي يقول فيها : إنها دلت على إحياء ميت الأدب ، نجد أكثرها لغيره ، فهو مرة يأخذ المعاني ، ومرة أخرى يجلب الألفاظ والجمل المعتادة الباعثة على النفرة ، سيما في الشعر الذي من أقوى عناصره الغرابة ، والطرافة ، فاستمع إليه يقول في ارتياح ونشوة ، ٨

وقد غفت من أعين العداة * حتى عيون الزهر في الجنات
ولم أزل وذاته حياتي * أشكو الظما والماء في لهاتي
يلحفنا العفاف خير برد
ضممته ضم البخيل ماله * وبات لي كالظبي في الحباله
وأختشي مع ذلك انفصاله * فلم أزل طالبة وصاله
فاعجب لقرب صار عين البعد .

فالمعاني التي عبر عنها في هذه الأبيات هي التي نجدها في قصيدة أبي بحر صفوان بن إدريس التي يقول فيها :

بتنا نشعشع ، والعفاف نديمنا * خمرين من غزلي ، ومن كلماته
ضاجعته ، والليل يذكي تحته * نارين من نفسي ، ومن وجناته
وضممته ضم البخيل لماله * أحنو عليه من جميع جهاته

أوثقته في ساعدي ؛ لأنه * ظبي خشيت عليه من فلتاته

. . . .

وأبى عفافي أن أقبّل ثغره * والقلب مطوي على جمراته
فاعجب لملتهب الجوانح غلة * يشكو الظما والماء في لهواته (١)

فأنت ترى أن أبا العباس حين ينظم قصيدا يمت إلى الشعر الحق بصلة وثيقة ، فإنه يكون مقتبسا وناقلا ، ولا نتبين فيه شاعرية ، قوامها دقة الملاحظة ، وخصب الخيال ، والشعور بالجمال .

والمقري رغم قصوره في ميدان الشعر ؛ فإنه نظم في كثير من الأغراض الشعرية كالغزل ، والشوق ، والمدح ، والوصف ، والحكم ، والعتاب . وسأشير إلى غرض واحد من هذه الأغراض في إيجاز ، وهو التغزل الفاحش ؛ لأن ذلك يطلعنا على كثير من خبايا هذه النفسيّة المغربية الكثيرة الشك ، الدائمة الاحتراز . وما أشد حاجتنا إلى معرفة خبايا النفوس ؛ لنكون صادقين في أحكامنا ! قد يستغرب من يقف دون الهوايا قول المقري للشعر السافر في التغزل بالمرأة ، والتعرض للغلمان ، ولكن إذا آمنا بصحة ما تقدم في التوطئة ، وأدركنا أن تلك الفاحشة استمر أثرها إلى عصر المقري ، وأن أبا العباس قضى زمنا مديدا في فاس التي كثر فيها الدخيل ، وأثر في أخلاق أهلها الاختلاط ، وفقدوا الضمير الأخلاقي الواعي ، وقضى زمنا طويلا من حياته ، وهو عَزَب ، يكبت غرائزه كلما

(١) انظر شرح الغرناطي لمقصورة حازم القرطاجني ج ١ ص ٥٧ ط القاهرة س ١٣٤٤ هـ

حاولت التعبير ، ويفر من ضغطها إلى التصوّف ، والزهد ، ولكنها في يوم ما من حياته المضطربة ، كانت لها الغلبة ، فالتجأ أبو العباس إلى القول ، يسكتها به :

حتى إذا مـا حنّت الأرواحُ * إلى اللّقا ، واشتـاقت الأشباحُ
قالا وكلٌّ صبْـره ممْتاحُ * هل حاكمٌ من طبعه السّماحُ
يسلك بيننا سبيل القصد

لكن يكون بالهوى خبيراً * مستيقظا في حكمه بصيرا
قد جاب منه السهلَ والعسيرا * وعانق الظبية والغريرا
وهام بالشِيب معاً والمردِ

يكون في ذا الفنّ مغربيّا * الشيخ عنده يُرى صبيا
وفي محبّة النّسا عُذْريًّا * في الخصلتين ماهراً غويّا
فزينبٌ لديْه مثلُ زيدِ

قد ترى في هذا إغراقا في تقليد القدماء ، وليس كما أشرت . وأنا لا أستبعد هذا الرأي الذي لوحت إليه في التوطئة ، ولكني أشعر شعوراً قويا بوجود صلة بين مثل هذا القول ، وبين أزمة نفسيّة مر بها صاحبه . ومهما يكن تعليل هذه الظاهرة صحيحا ، أو ينقصه التوفيق ، فإن أبا العباس قد نظم الشعر في كثير الأغراض منها هذا اللون الذي اشتد ولع الناس به في ذلك العصر ، ولكنه ما كان بهذا النظم ، وتنوع أغراضه ، ولن يكون شاعراً من شعراء العربية إذا فهمنا الشعر ، كما يفهمه حازم القرطاجني الناقد

الأدبي الممتاز . وستدخل هذه الحقيقة الجلية التي نعانها بكل اطمئنان وتجرد الشك في نفوس أولئك الذين كانوا يظنون أبا العباس « خنذيذا » ومن يدري لعل أبا العباس نفسه لا يجرؤ أن يدعي أنه شاعر ، وشاعر مفلق كما أراد ان يثبت ذلك الأستاذ الشرايبي . (١)

المقري الكاتب :

إن الماء المتفجر من الحجارة باعث على الانتباه والاستغراب ؛ لندرة الصورة ، وإن البرق الذي يلتمع في ظلمة شديدة كنفوس المتشائمين ، يحدث هزة ، ويزيد في رجاء المنتظر . . . ولكن هذا لا يحول بين الواعي وبين اكتناهه طبيعة الماء المنساب ، ومعرفة صدق البرق . فقد يكون الماء أجاجا ، فتنعدم الجدوى ، ويضعف الانفعال ، وقد يكون البرق خلبا ، ليس وراءه ري ، فينقطع الرجاء . وما قصدنا بالحجارة ، والظلمة إلاّ انحطاط عصر أبي العباس أحمد المقري . وليكن هو الماء والبرق ، أو ليكن المقري الكاتب في القرن الحادي عشر الهجري .

أردت بالتوطئة في هذه الدراسة إعطاء صورة واضحة للقارئ عن عصر صاحب الترجمة ؛ لنربط في دراسة حياته ، وفهم نفسيّته بينه وبين البيئة التي عاش فيها . وقد ظهر لنا من دراسة عصره هناك أن الحركة الفكرية في القرن الحادي العشر الذي عاش فيه المقري كانت في احتضار ،

(١) انظر مجلة الرسالة عدد ١٠١ - ١٠٢ س ١٩٣٥

وأن النثر الأدبي فقد روعته وجماله، وأصبح تكلفا بغيضا لألوان البديع، واجتراراً لما قاله القدماء. ذلك ما أصبح عليه النثر الأدبي في عصره. فما هي ميزات نثره، وما هي الطريقة التي اتبعها في فن الإنشاء.

كلف أبو العباس بأخبار ابن الخطيب وآثاره كلفا شديدا، جعله يحتذي وزير غرناطة في الكتابة، ويحاول النسج على منواله. فأنت إذا قرأت رسائل ابن الخطيب، وقرأت شيئا من نفح الطيب، أو أزهار الرياض، تجد قربا شديدا بين الرجلين، وتشعر أن أحدهما أرهق نفسه؛ ليلحق بالآخر. فكل منهما يتكلف ألوان البديع، ويضحي بالمعنى من أجل السجعة. ونحن حين ندرس نثر لسان الدين نجد من أجلى ميزاته طول الجملة، حتى قال بعض السابقين «هو كاتب مترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار، الذي لا يخلو من عثار، والإطناب الذي يفضي إلى الاجتناب (١)» واستمع إليه يقول؛ لتلمس بنفسك هذا الإطناب، وطول الفصل «لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمنية السنية، والعارفة الوارفة، واللطيفة المطيفة، بين رجع الشباب يقطر ماء، ويرف نماء، ويغازل عيون الكواكب، فضلا عن الكواعب، إشارةً وإيماء، بحيث لا الوخط يلم بسياج لمته، أو يقدح ذباله في ظلمته، أو يقوم حواريّه في ملته من الأحابش وأمته، وزمانه روح وراح، ومغدى في النعيم ومراح، وقطف صراح، ورقى وجراح، وانتخاب واقتراح، وصدور ما بها الا انشراح، ومسرات

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ١٧٢

تردفها أفراح ، وبين قدومك خليعَ الرّسَن ، ممتعا ـ والحمد لله ـ باليقظة والوسن ، محكّما في نسك الجنيد ، أو فتك الحسن ، ممتعا بظرف المعارف ، مالئا أكف الصيارف ما حيا بأنوار البراهين شبه الزخارف ـ لما اخترت الشباب . . » (١) وهذه الميزة نجدها عند أبي العباس واضحة جلية في جميع تآليفه ، ويصل تقليد المقري لابن الخطيب إلى درجة النسج على منواله في رسالة خاصة ، أو موضوع معين (٢) وأريد أن أثبت هنا أن لسان الدين لا يلتزم السجع في جميع ما يكتب. فنحن نجده لا يسجع في كتابه « الإحاطة في أخبار غرناطة » وهذا ما يعز في كتب أبي العباس الأدبية .

بعد ما عرفنا الطريقة التي اتبعها المقري في فن الإنشاء ، والرجل الذي اقتفى خطواته نرجع إلى نثره ؛ لنرى ضروب التلفيق والتصنع من جناس ، وتورية ، واستعمال لمصطلحات العلوم ، والكلف بالاقتباس والتضمين (٣) مما جعله يعبر عن معانيه بأساليب محفوظة لا تفصح عن فكرة محدودة ، وبذلك فقد الأسلوب الجيد الذي هو ضمان خلود كل أثر ، كما يقول العسكري . ويبدو أن الذي اضطره إلى هذا الاجترار الفاضح ، إنما هو ضعف في التفكير ، وفقر في المعاني ، وجمود في الصور ، ولكنه لم يدرك أنه « من الخير لمن قصر تفكيره وأسلوبه عن بلوغ الأعماق أن يقنع بالساقية الواضحة القرار من أن يستر صفحتها بالطحالب والأعشاب »

(١) انظر التعريف بابن خلدون ص ٨٢ ط القاهرة س ١٩٥١

(٢) انظر نفح الطيب ج ٩ ص ٨٣

(٣) اقرا خطبة أزهار الرياض ، ومقدمة النفح .

فذهب يلفق ، ويدور في الفراغ « وما أَحسن قول عالم الأندلس المالكي اللبيب ، عبد الملك السلمي المشهور بابن حبيب » أَرأَيت كيف يركض وراء السجعة ، وإن أدمته العواثير ، ويحمد الله حين يظفر بها ، وإن ذهب ضحيتها المعنى « والصديق الصدوق في هذا الزمن قليل ، وقد ألف بعض العلماء ـ شفاء الغليل في ذم الصاحب والخليل ، وهو غير محمول على الإطلاق ، وإن قال به بعض من رهنه من أبناء عصره ذو إغلاق » فأنت حين تقرأ مثل هذه الفقرات تبهرك بداءة ، ولكن حين تمعن وتلح في الإمعان ، تشعر بالفراغ ، وتحس أن الرجل عبد للألفاظ يأتمر بأوامرها . . . ويمتاز المقري بميزة لا نجد ها في أستاذه لسان الدين ، وهي الاستطراد الذي أشرت إليه سابقا ، وهو وإن كان اتصاله بطريقة التأليف شديدا ، فإن له أثرا في نثر الرجل ، وإنشائه ، وهذه الظاهرة وحدها هي التي تصله بالجاحظ الذي يؤمن بفائدة الاستطراد ، ويعلل الالتجاء إليه تعليلا يقرب من تعليل صاحب النفح (١) حين يقول « إني أوشح هذا الكتاب (الحيوان) بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ؛ ليخرج قارئه من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والاغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها » هذه نقطة التقاء المقري بالجاحظ . أما تلك الفقرة القديمة « حافظ المغرب ، جاحظ البيان » فلا صحة لآخرها . ومن خطل الرأي أن نقول إن بيان المقري جاحظي ،

---

(١) انظر ص ٦٢ من هذه الدراسة

ونقصد أسلوب الكتابة ، وإنما نستطيع أن نقول إن المقري ليس كاتبا ، ولا منشئا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وإنما هو حافظ مؤلف . والغريب أن كثيراً من المصادر القديمة والحديثة ، وكثيرا من المثقفين ، يرددون هذه الكلمة في اطمئنان إليها ، وإيمان بصحتها ، وهي تثبت أنه جاحظي البيان في المغرب ، لا جاحظي طريقة التأليف . ونحن حين نثبت كل هذا ، ونصف أبا العباس بما وصفنا لا ننكر أنه يجيد أحايين اذا توفرت له المعاني . فنحن نشعر بعدم الفراغ - وإن كان المعنى معتادا - حين يقول « وليت شعري علام يحسد من أبدل الاغتراب شارته ، وأضعف الاضطراب إشارته ، وأنهل بالدموع أنواءه ، وقلل أضواءه وأكثر علله وأدواءه ، وغير عند التأمل رواءه ..» فهو إن أعرب عن معنى مألوف ، لكنه كان صادقا في إعرابه ، وواصفا لواقع مؤلم.

هذا نثر المقري من خلال ما كتب . أما إذا لم نفصل بينه وبين الحركة الفكرية في عصره . فإننا لا نجد ما يحول بيننا ، وبين جعل المقري في طليعة كتاب عصره ، ولا نجد ما يمنعنا من تقديمه على شهاب الدين الخفاجي الذي جعله الأستاذ أحمد أمين أمثل كاتب في عصر الانحطاط (١) ، بل نرى من الإنصاف والصدق تقديمه عليه .

وهكذا كان الماء المتفجر من الحجارة أجاجا ، أو يكاد . وتستطيع أن تقول في اطمئنان : إن نثر المقري لم يسلم من مظاهر انحطاط الحركة الفكرية زمن أبي العباس، وإن كان قويا، شديد السبك، يطرب له كثيرون.

---

(١) راجع قصة الادب في العالم ج ٢ ص ٤٣٣

نماذج من إنتاجه

هذا نموذج من نثره الأدبي ، يصف لنا فيه هول البحر ، ومشقة السفر وصفا صادقا ؛ لأنه يصوّر لنا فيه تجربة عاشها ، ويعرب عن حالة طال بقاؤه فيها ، واشتدّت عليه وطأتها .

قال يصف البحر ، وقد ركبه قاصداً الإسكندرية :

ثم جدّ بنا السّيرُ في البر أياما ، ونأينا عن الأوطان التي أطنبنا في الحديث حبّا لها وهياما ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما ، إلى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السَّحْر (١) والنحر ، وشاهدنا من أهواله وتنافي أحواله ، ما لا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه ،

~~البحر صعب المرام جداً * لا جُعلت حاجتي إليه~~
~~أليس ماءً ونحن طين * فما عسى صبرنا عليه~~

فكم استقبلنا أمواجه بوجوه بواسر (٢) ، وطارت إلينا من شراعه عِقْبان كواسر ، قد أزعجتها أكُفُّ الريح من وكرها ، كما نبهت اللجج من سكرها ؛ فلم تُبق شيئاً من قوّتها ومكرها ؛ فسمعنا للجبال صفيرا ، وللرياح دويّاً عظيما وزفيرا ، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلاّ فضل الله مجيراً

(١) الرئة

(٢) جاء في معاجم اللغة بسر يبسر بسراً وبسوراً : قطب وجهه ، فهو باسر والجمع بواسر .

وخفيرا « وإذا مسّكم الضُرُّ في البحر ضلّ من تدعون إلاّ إيّاه (١) » وأيسنا من الحياة ، لصوت تلك العواصف والمياه ؛ فلا حيّا الله ذلك الهول المزعج ولا بيّاه ، والموج يصفّق لسماع أَصوات الرياح؛ فيطرب ، بل ويضطرب ؛ فكأنه من كأس الجنون يشرب أَو شرب ؛ فيبتعد ويقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولا تكاد تتفق ؛ فتخال الجوّ يأخذ بنواصيها ، وتجذبها أَيديه من قواصيها ، حتى كاد سطح الأرض ينكشف من خلالها ، وعنان السحب يخطف في استقلالها ، وقد أَشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها ، وآذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت الظنون ، وتراءت في صورها المنون ، والشراع في قراع مع جيوش الأمواج ، التي أَمدّت منها الأفواج بالأفواج ، ونحن قعود ، كدود على عود ، ما بين فرادى وأَزواج ، وقد نبَت بنا من القلق أَمكِنَتُنا ، وخرسَت من الفرَق أَلسنتُنا ، وتوهّمنا أَنه ليس في الوجود ، أَغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء ، وذلك السّفين ، ومَن في قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدوّ ؛ في الرواح والغدوّ ، لاجتيازه على عدّة من بلاد الحرب ، دمّر الله سبحانه مَن فيها ، وأَذهب بفتحها عن المسلمين الكرْب . لا سيما مالطة الملعونة ، التي يتحقق مَن خلَص من معرّتها أَنه أُمِدّ بتأييد إلهيّ ومعونةٍ ؛ فقد اعترضت في لهَوات البحر الشامي (٢) شجَا ، وقل من ركبه فأَفلَت

(١) آية ٦٦ من سورة الاسراء.

(٢) البحر الابيض المتوسط.

من كيدها ونجا ؛ فزادنا ذلك الحذر ، الذي لم يبق ولم يذر ، على ما وصفناه من هول البحر قلقا ، وأجرينا إذّاك في ميدان الإلقاء باليد إلى التهلكة طلقا ، وتشتّت أفكارنا فِرَقا ، وذبنا أسى وندما وفرَقا ، إذ البحر وحده لا كَمِيٌّ يقارعه ، ولا قويٌّ يصارعه ، ولا شكلٌ يضارعه ، لا يُؤمَن على كل حال ، ولا يفرّق بين عاطلٍ وحالٍ ، ولا بين أعزل وشاكي ، ومتباكٍ وباكي

ثلاثة ليس لها أمان * البحر والسلطان والزمان

فكيف وقد انضم إليه خوف العدوّ الغادر الخائن ، والكافر الحائن (١) ، إلى أن قضى الله بالنجاة ، وكل ما أراد فهو الكائن ، وإن نهى عنه وأخطأ المائن ؛ فرأينا البر وكأنا قبل لم نَرَهْ ، وشفيت به أعيننا من المَرَهْ (٢) ، وحصل بعد الشدّة الفرج ، وشممنا من السلامة أطيب الأرج ؛ فيالها من نعمة كشفت عن وجهها النقاب ، يقل شكراً لها صوم الأحقاب ، وعتق الرقاب . جعلنا الله بآياته معتبرين ، وعلى طاعته مصطبرين ، ولم نخل في البر من معاناة خطوب ، ومداراة وجوه للمتاعب ذات تجهّم وقطوب ؛ فكم جبنا منه مهامه فيحا (٣) ، ومسحنا بالخطا منها أثيراً وصفيحا ، وفلينا الفجاج ، وقرأنا من الطرق خطوطا ذات استقامة واعوجاج ، وقلوب الرفقة من الفرقة في اضطراب وارتجاج ، وربما عميت على المجتهد الأدلة التي يحصل بها على المذهب الاحتجاج ؛ فترى الأنفاس

---

(١) يقال حان فلان حينا وحينونة هلك

(٢) مرهت (من باب فرح) عينه : فسدت .

(٣) متسعة

تعثر في زفرة الأشواق، والأجسام قد زُرّتْ عليها من التعب الأطواق.
هذا والليل بصفحة البدر مرتاب، وقد شدّت رحال وأقتاب، وزُمّت ركاب، ورفعت أحداج، وفُريت من الدَّعة بمدية النصَب أوداج، وتساوى في السير نهار مشرق، وليل مقمر أو داج، وأديم التأويب والإسآد، وحمل الغربة قد أثقل وآد» نفح الطيب ج ١ ص ٤٤

مختارات من مزدوجته :

وبعد فالحب حبيب النفسِ * وراحة الروح، وأُنس الأُنسِ
ولطف طبعٍ في الحجا والحدْسِ * وأسوةٌ تنفع للتأسِّي
والحبّ ليس مدرَكاً بالحدِّ

فإن تشأ فقل عذابٌ يعذُبُ * أو ضربان في الهوى، أوضَرَبُ
أو نعمةٌ، أو نقمةٌ، أو أرَبُ * تأنَسُ النفسُ به وتُعْطَبُ
قد حرتُ بين عكسه والطرْدِ

كم ملّك الأحرارَ للعبادِ * وأوْجد الرّقة في الجمادْ
وحكّم الظبا على الآساد * وصوّب الخطا على السداد
وألبس الغيّ بعين الرشد

فانظر إلى قيس، وما قد قاسى * وابن الذريح إذْ دنا وقاسى
وتوبةَ الذي تناسى الباسا * وقيْس ذي الرّمّة أو عبّاسا
واذكر كُثَيّراً، وبشر هند

. . . .

ولم أزل في حبّ ذا المقرطق * من في هواه هام من لم يعشق
لا حُسنه يفنى ، ولا صبري بقِي * منخفضا طوراً ، وطوراً أرْتَقي
أرفُل في أسْرِ الهوى في قيْد

فبينما أسلمتُ نفسِي للتلف * وأسقط التكليف منّي والكاف
إذا زارني كالبدر في سجْف الصدَف * فجَأة ، وهكذا البسط صُدَف
وقال إن الخُلْف خلق الوَغْد

فقمتُ أسعى فوق أحداق المقل * لمّا بدا كالشمس في برج الحمل
أفترشُ الخدَّ ، ودمْعي قد همَلْ * على بساطٍ فرشه سُمْرُ الأسَل
والصب من يصبو لغاب الأُسْدِ

وحلّ من جسْمي محلَّ النفس * ولاح بدرا في سماء المجلس
وأشرقت شمس الطِّلا في الحِنْدِس * من أكْؤُسٍ مثلِ الجواري الكنّسِ
تطرد عنا الهم أيّ طردِ

شبّهتِ وجنتيَّ بالتفاحِ * وطلعتي بالشمس والإصباح
ومبسمي بزهرة الأقاح * وحلْو ريقي مثل طعم الراحِ
وتارة شبّهتِه بالشهد

كذاك قد شبّهتِ خدّي بالذهَبْ * وتارةً سمَّيْته أَبا لهَبْ
وكم كذاك تنشدين بالطرَبْ * من عجبٍ قد أَصبح الورد عجَبْ
أنا خشيتُ منه حرّ الوقد

خذي أحاديث الملاح عنّي * فإنني أستاذ هذا الفنّ
بل منيةٌ أصلح للتمنّي * ووالدي سمسار سوق الحسن
وليس من يمد كالمتدّ

خطّ البها بالقلم الريحاني * فيما روى الربيع عن نعمانِ
من شبّه الخدود بالنيران * من حولها العذار كالجنانِ
أو قاس بالغصن رشيق القدّ

أو قال إن الريق كالرحيق * أو شبّه الوجنات بالشقيق
والثغْرَ باللؤلؤ في العقيق * أو بارقٍ يلمع في البريق
يقضى عليه عندنا بالحدّ

الحسن شيءٌ ما له شبيهُ * وكلُّ وجهٍ حازه وجيهُ
وذا الذي يدركهُ التشبيهُ * في نفسه فهو له تنزيه
عن أن يُرى معرّفاً بالحدّ

إن المليح من يزيّن الحَلْل * ويكتسي من خدّه الوردُ خجَل
يا من يقول الحسنُ ينمو بالعمل * ما الاكتحالُ في العيون كالكحل
والحسنُ ليس من صنيع الأيْدي

من عرف المحبوب حقّ المعرفهْ * لو يُوله غير الكمال من صفه
فإن جفاه ، أَو ألان معْطفَهْ * لحظّهُ يا حسنَه ما أَلطَفَهْ
في الحالتين راسخ كالطود

للحسن سلطانٌ شديد القهرِ * كلُّ الملاح معه تحت الحجرِ

يجبرهم على الجفا والجور * وليس يُبقِي رحمة في الصدر
على غريق في بحار الوجد

. . . .

وهذه أرجوزةٌ سنيّه * بل روضة مطلولةٌ بهيّه
بل درّةٌ مكنونةٌ مُضيّه * بل حرّةٌ مصونةٌ نقيّه
حرُّ الكلام عندها كالعبد

فهي لصيد العقل نعم الشَرَكُ * لم يدرك المعشار منها مدرك
وما لها بين الأنام مُشرِكُ * كأنّها مما حوته فلك
أو انها في الحسن دار الخلد

دلّت على إحياء ميْت الأدَب * ونشر أبكارِ معاني العرب
شمساً ولكن افقها في المغرب * بدراً ولكن تزدري بالكوكب
مفردة من مُفْردٍ في فرْد

خطبة أزهار الرياض :

الحمد لله الذي أعلَى مراتِب العلماء الأعلام ، وزكّى منهم العقولَ الراجحة والأحلام ، ومَنَحهم مآثِرَ تَقصُر عن جمعها المحابرُ والأقلام ؛ ومفاخرَ طارت كلَّ مطار ، وجعلت معاليَهم زاهرة زاهية ، وأَضواء فُهومهم نامية سامية ، وأنواء علومهم هامِعة هامية ؛ بوا كف الأمطار ، وأطلعهم على دقائق الأسرار . وهَداهم وهدى بهم إلى ترتيب المدارك ، وتقريب

المسالك؛ وجلى بمشارق الأنوار من معارفهم وآدابهم، عمن تمسك بأذيالهم وأهدابهم غياهب الجهل الحوالك؛ فأضاءت الأقطار، وعرّفهم المقاصد الحسان، والوسائل المغتبَطَة والإلماع، بأصول الرواية والسّماع؛ والإعلام بحُدود قوَاعد الإسلام؛ وأرشدهم إلى التنبيهات المُستَنبَطَة السامية الأخطار؛ حتى رفَلُوا من حُلل التحقيق السابغة، في مطارف وبرود، ووَرَدوا من مناهل التوفيق السائغة، كل عَذب بَرُود؛ وتنسّموا من حجج الحق البالغة، الروض المعطار؛ واجتنوا أزاهرَ، أضحت منية الطالب، وبغية الرائد؛ واجتاوا جواهر، نُظمت منها الدّرر والفرائد؛ في أجياد الأسطار. فإن أمّهم ناقصٌ عديم، ألفَى لديهم الغُنيَة والإكمال؛ أو قصَدهم عليلٌ سقيم وجد في يَدَيهم الشفاء؛ فنال غاية الآمال، وظفر بمنتهى الأوطار والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد أفضل العالمين بإطلاق، سراج المريدين وكنز العارفين، الذي لا يخشى معه إملاق عُمدتنا العظمى، ووسيلتنا الكُبرى عند الملك الخلّاق . . »(١)

---

(١) مما عودنا به المؤلف أحيانا تضمينه لاسماء كتب . وقد ضمن في هذه الخطبة أسماء عدة كتب للقاضي عياض وغيره وهي « ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك » « مشارق الانوار على صحاح الاثار » « بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد » « الغنية » « الاكمال لكتاب المعلم في شرح صحيح مسلم » « الشفا في تعريف حقوق المصطفى » هذه كتب للقاضي .

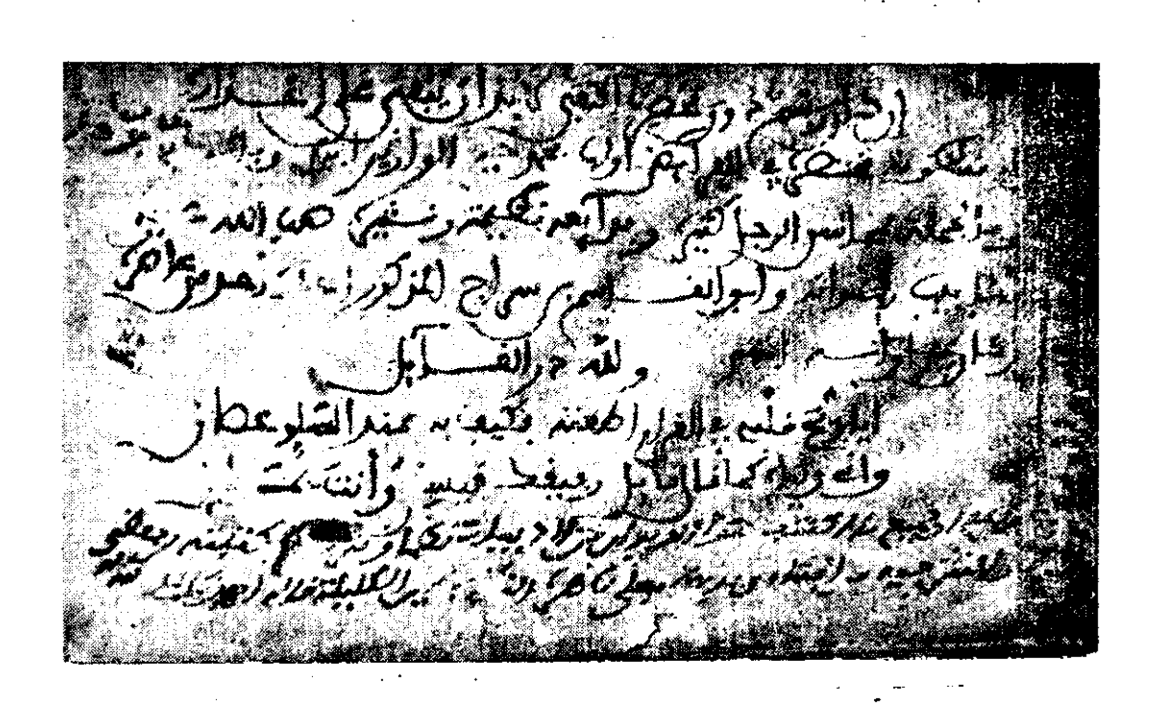
« سراج المريدين » لابي بكر بن العربي « كنز العارفين » مجهول المؤلف انظر الكشف ج ٢ ص ١٩٠ «الروض المعطار في اخبار الاقطار» لابي عبد الله الحميري المتوفي س ٩٠٠ هـ « منية الطالب لاعز المطالب » مجهول المؤلف راجع الكشف ج ٢ ص ٣٦٠ «المقاصد الحسان فيما يلزم الانسان» مجهول المؤلف انظر الكشف ج ٢ ص ٣١٠

خاتمة

إذا لم نشعر بالعظمة في هذه الـدراسة ، ولم نظفر بجوانب خصبة في المترجم له ، تصل بيننا وبين لذة الكشف عن سر الإبداع ، وعناصر الخلق ، فإنا نشعر بأننا قد عرفنـا شخصية مغربية منتجة ، معرفة بينهـا وبين المبـالغة والارتجال شقة بعيدة ، وبينها وبين التجرد ، ومحاولة الكشف عن الحقيقة ، وبلوغ اليقين إيمانُ الـكاتب بقداسة الأمانة ، وحرمة البحث ؛ ونشعر أن أخطاء قديمة وحديثة أدركها الصواب ، وأن تراث المغرب العربي في مسيس الحاجة إلى من يعمل في سبيل إظهاره ونشره من أبناء المغرب أنفسهم .

وأنا أشعر أن القراء الكرام قد يستغربون أشياء في هذه الـدراسة سيما أولئك الذين كانوا يقدسون صاحب النفح تقديسا غير معلل ، ويلذهم سجع أبي العباس ودورانه . ولكن ليعلم هؤلاء وأولئك أن قيمة المقري لم تكن في فنه الإنشائي ، ولا في شعره الرائق ، وإنما ظفر بها في كتابه الذي أرخ لنافيه حضارة كاملة فقدنا مصادرها ؛ وليعلموا أيضا أنه ليس من صدق البحث ، ولا من إنصاف صاحب النفح أن تكون هذه الدراسة قصيدة ثناء . .

وأخيرا إذا حظيت هذه الدراسة بالتوفيق والرضاء ، فذلك ما يرجوه كل باحث عن حقيقة يكون ذاك التوفيق جزاء ظفره بهـا ، وإذا لم تحظ بكثير من التوفيق ، فذلك ما أردنا الابتعاد عنه قدر الاستطاعة خدمة للبحث ، وللتاريخ ، وما إدراك الكمال بيسير ، وفي ذلك سر الهيام به .



يبدو في آخر الصفحة خط المقري . (أخـذ عن مجموع مخطوط بمكتبة الأستاذ حسن حسني عبد الـوهاب)

فهرس المــــــراجع

١ ـ الجمان في أخبار الــزمان المنسوب للمقري مخطوط بالصادقية رقم ٣٥٣٥
٢ ـ فتح المتعال في مدح النعال للمقري مخطوط بالصادقية رقم ٩٧٥
٣ ـ إتحاف المغرم المغرى بتكميل شرح الصغرى للمقري مخطوط بخزينة جامع الزيتونة رقم ٢١٠٣
٤ ـ المختــار من نـوادر الاخبــار المنسوب للمقري مخطوط بخزينة جامع الزيتونة رقم ١٨٣٦
٥ ـ شرح الغدامسي على إضاءة الدجنة مخطوط بخزينة جامع الزيتونة رقم ٢٠٤٧
٦ ـ شرح الشيخ عليش على إضاءة الدجنة ط القاهرة س ١٣٠٦ هـ
٧ ـ نفح الطيب للمقري طبع مصر س ١٩٤٩
٨ ـ أزهار الرياض في اخبار عياض للمقري طبع مصر س ١٩٣٩
٩ ـ المزدوجات (مجموع به مزدوجة للمقري) طبعت بالمطبعة الحجريــة الازهرية بمصر س ١٢٩٩ هـ
١٠ ـ خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر للمحبي . المطبعة الوهبية مصر س ١٢٨٤ هـ
١١ ـ تعريف الخلف برجال السلف لابي القاسم الغول طبع الجزائر س ١٩٠٦ هـ
١٢ ـ البستان في ذكر الاوليا والعلمــاء بتلمسان لابن مريم الشريف التلمساني طبع الجزائر س ١٩٠٨
١٣ ـ اليواقيت الثمينة في اعيان مذهب عالم المدينة لمحمد البشير الازهــري طبع مصر س ١٣٢٥ هـ
١٤ ـ خبايا الزوايا فيما في الرجال من البقايا تاليف احمد شهاب الدين الخفاجي مخطوط بالصادقية رقم ٥١٢٢
١٥ ـ المحاضرات لابي علي نور الدين اليوسي المراكشي طبع فاس س ١٣١٧ هـ
١٦ ـ ريحانة الالبا وزهرة الحيــاة الــدنيا لشهاب الــدين الخفاجي طبع مصر س ١٣٠٦ هـ
١٧ ـ اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس . للشيخ عبد الرحمن ابن زيدان . المطبعة الوطنية بالرباط س ١٩٢٩

١٨ - سلافة العصر في محاسن الشعر بكل مصر تاليف علي صدر الدين المدني المدني المعروف بابن معصوم طبع مصر س ١٣٢٤ هـ
١٩ - الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى للسلاوي طبع مصر س ١٣١٢ هـ
٢٠ - نيل الابتهاج بتطريز الديباج لاحمد بابا التنبكتي السوداني طبع مصر س ١٣٢٩ هـ
٢١ - نزهة الحادي باخبار ملوك القرن الحادي لمحمد الصغير المراكشي طبع باريس س ١٨٨٨ م
٢٢ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي للشيخ محمد بن الحسن الحجوي طبع الرباط س ١٣٤٠ هـ
٢٣ - الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين (الشرح الكبير ص ٤١) تاليف الشيخ محمد ميارة طبع مصر س ١٣٠٦ هـ
٢٤ - شجرة النور الزكية للشيخ مخلوف طبع القاهرة س ١٣٤٩ هـ
٢٥ - خلاصة تاريخ الاندلس لشكيب ارسلان (تذييل رواية - آخر بني سراج - لشاتوبريان) طبع مصر س ١٩٢٥
٢٦ - الاعلام للزركلي طبع مصر س ١٩٢٧
٢٧ - الحلل السندسية في الاخبار والاثار الاندلسية لشكيب ارسلان المطبعة الرحمانية مصر س ١٩٣٦
٢٨ - تراجم اسلامية شرقية واندلسية تاليف عبد الله عنان دار المعارف مصر س ١٩٤٧
٢٩ - نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين ط القاهرة س ١٩٤٩
٣٠ - مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام ط القاهرة ١٩٥٢
٣١ - الحروب الصليبية في المشرق والمغرب (القسم الثاني) تاليف محمد العروسي المطوي ط تونس س ١٩٥٤
٣٢ - ظهر الاسلام ج ٣ ط القاهرة س ١٩٥٢
٣٣ - مجلة الرسالة المجلد الثالث س ١٩٣٥ عدد ١٠١ - ١٠٢ ص ٩٣٩ - ١٠٢٦
٣٤ - النبوغ المغربي في الادب العربي لعبد الله كنون المطبعة المهدية بتطوان
٣٥ - الحلقة المفقودة في تاريخ العرب لمحمد جميل بيهم طبع القاهرة س ١٩٥٠
٣٦ - فهرس الفهارس والاثبات ، ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات للشيخ عبد الحي الكتاني المطبعة الجديدة بفاس س ١٣٤٦ هـ
٣٧ - تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان طبع مصر س ١٩٣١ (الجزء الثالث)
٣٨ - المستشرقون لنجيب العقيقي طبع دار المعارف بمصر س ١٩٤٧

٣٩ ـ دليل مؤرخ المغرب الاقصى لعبد السلام بن سودة المطبعة الحسنية بتطوان س ١٩٥٠
٤٠ ـ قصة الادب في العالم (الجزء الثاني) تصنيف احمد امين وزكي نجيب محمود طبع القاهرة س ١٩٤٥
٤١ ـ الفن ومذاهبه في النثر العربي تاليف الدكتور شوقي ضيف طبع القاهرة س ١٩٤٦
٤٢ ـ المغرب في حلى المغرب (تاليف جماعة من الاندلسيين) طبع دار المعارف ـ سلسلة ذخائر العرب ـ س ١٩٥٣
٤٣ ـ تاريخ الادب العربي لبروكلمان بالالمانية (ترجمة احد الباحثين)
٤٤ ـ تاج العروس للزبيدي المطبعة الخيرية س ١٣٠٦ هـ
٤٥ ـ كشف الظنون لحاجي خليفة طبع مصر س ١٢٧٤ هـ
٤٦ ـ ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون تاليف اسماعيل باشا البغدادي ١٩٤٥
٤٧ ـ اسماء المؤلفين ، وآثار المصنفين تاليف اسماعيل باشا البغدادي طبع استانبول س ١٩٥١
٤٨ ـ عصر سلاطين المماليك (الجزء الثالث) تاليف محمود رزق سليم طبع القاهرة س ١٩٤٩
٤٩ ـ معجم المطبوعات لسركيس طبع مصر س ١٩٢٨
٥٠ ـ المسالك والممالك لابن حوقل طبع ليدن س ١٨٧٢
٥١ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي طبع مصر س ١٩٠٦
٥٢ ـ المغرب في ذكر بلاد افريقيا والمغرب وهو جزء من اجزاء الكتاب المعروف « بالمسالك والممالك » للبكري طبع ليدن س ١٩١١
٥٣ ـ كتاب البلدان لاحمد اليعقوبي طبع ليدن س ١٨٩٢
٥٤ ـ فهرس دار الكتب المصرية ط القاهرة س ١٩٣٠
٥٥ ـ خزائن الكتب في دمشق وضواحيها لحبيب الزيات ط مصر س ١٩٠٢

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الاهداء	
كلمة شكر وتقدير	
مقدمة	٧
توطئة	١١
القسم الاول : حياة المقري	
أسرته	٣١
نسبه وولادته	٣٣
تعلمه	٣٤
رحلته الى فاس	٣٥
رحلته الى المشرق	٣٩
المقري في الحجاز	٤٣
المقري في دمشق	٤٧
المقري في مصر	٥١
حنينه الى وطنه	٥٥
القسم الثاني : شخصيته العلمية	
مكوناتها	٥٩
طريقته في التاليف	٦١
مؤلفاته	٦٣
مكانته في نفوس معاصريه	١٠٠
القسم الثالث : انتاج المقري وتفكيره	
المقري المؤرخ	١٠٤
المقري الشاعر	١٠٦
المقري الكاتب	١١١
نماذج من انتاجه	١١٦
خاتمة	١٢٤

أرجو من القارىء الكريم أن يصلح هذه الاخطاء قبل شروعه في قراءة الدراسة .

ص	س	الخطأ	الصواب
١٢	٧	ذكرُ والالماعُ	ذكرَ . . .
١٢	١٤	عليه	عنه
١٣	٨ ـ ١٠	سينقض	سينقذ
١٣	١٣	عليها	عليهما
١٩	١	وإما يكون	وإما ان يكون
١٩	٩	بظاعتهم	بضاعتهم
٣٩	١١	مظافين	مضافين
٤١	١١	فحضي	فحظي
٤١	١٥	لانها	انها
٥٥	٦	الانقاض	الانقاذ
٧٨	٤ ـ ٥	يحتاجها . .	يحتاج إليها . .
١٠٤	١٠	ليست فكرة	ليست له فكرة
١٠٧	١٨	فيه	فيها



DATE DUE

